طيور بيضاء

ياسوناري
كاواباتا



ترجمة
بسام ج



المركز الثقافي العربي

سرب طيور بيضاء

* سرب طيور بيضاء (سمبازورو)
* المؤلف: ياسوناري كاواباتا
* ترجمة: بسّام حجّار
* الطبعة الأولى/ 1991

* الناشر: المركز الثقافي العربي
* العنوان:

□ بيروت/الحمراء ـ شارع جان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
* ص.ب/113-5158/ * هاتف/343701-352826/ * تلكس/NIZAR 23297LE/

□ الدار البيضاء/ ● 42 الشارع الملكي ـ الأحباس * ص.ب/4006/ * هاتف/303339-307651
● 28 شارع 2 مارس ـ إقامة 2 مارس * هاتف/271753-276838/

ياسوناري
كاواباتا



ترجمة
بسام حجار



الكتاب الأوّل

سمبازورو، أو سرب طيور بيضاء

I

كان كيكوجي قد جاوز سور معبد انغاكوجي، في كماكورا، إلاّ أنّه كان لا يـزال متردّداً. أيذهب إلى حَفل الشاي هذا أم لا؟ ثمّ ألن يصل إليه متأخراً؟

ولئن كانت الآنسة كوريموتو شيكاكـو(*)، أستاذة فنّ الشـاي، لا يفوتهـا أبداً أن تدعوه كلّما أقامت حفلاً مماثلاً في إحدى مقصورات حـديقة المعبـد، فهـو، بـرغم ذلـك، لم يشارك في أيٍّ منهـا منذ وفـاة والده. إذ لم تكن هـذه الدعـوات في نظره سوى مبادرات لياقة احتراماً لذكرى المرحوم والده، فلا يوليها أيّ اهتمام.

أمّـا دعوة ذلـك اليوم فقـد ألحّت عليها المضيفـة وأرفقتها ببضـع كلمـاتٍ بخط يدها: فهي تودّ أن يلتقي بفتاةٍ من تلميذاتها.

وعند قراءته لتلك الكلمات، لم يستطع كيكوجي إلاّ أن تعاوده صورة البُقع التي تغطّي ثدي شيكاكو.

لم يكن، آنذاك، قد جاوز أعوامه الثمانية أو التسعة: جاء برفقة والده إلى بيتها، وكانت في حجرتها، وقد عَرَّت ثديهـا، مُنهمكةً بقصّ الشعـيرات الكثيفة التي نبتت فـوق هذه البُقـع بواسـطة مقص صغـير. إنها بقـع قبيحـة ضـاربـة إلى البنفسجيّ القاتم، كبيرة بحجم كفّ مفتوحة، تغطي ثديها الأيسر وما تحتـه وينبتُ فيها شعـر كثيف.

ـ آه، لقـد أتيت برفقـة صغيرك! صرختْ من وقـع المفاجـأة وهي ترفـع يـاقـة الكيمونو بحركةٍ مرتبكة. وبدا أنّ ما كان يُضاعف من ارتباكها استعجالها الـواضح

(*) نحافظ هنا على دارج العادة اليابانية إذ تُقدِّم اسم العائلة على الاسم الشخصي.

في ستر صدرها العاري. وأخيراً استدارت قليلاً لتسوّي طرف الكيمونو، بتمهّلٍ ولباقة، تحت زنّارها.

لم تكن زيارة والد كيكوجي هي التي فاجأتها بالطبع، بل الطفل الذي لم تتوقع حضوره. ولا بدّ أنّ الخادمة التي فتحت لهما الباب لم تعلمها إلاّ بوصول الزائر العتيد بمفرده.

دخل والد كيكوجي، مُتحاشياً حجرة شيكاكو، إلى الحجرة المحاذية التي جُعِلت صالة لمجالس الشاي. وهناك، وقف قبالة التوكونوما(*) محدّقاً في الكاكيمونو المعلّق، وسأل بصوتٍ ساهٍ:

- أبإمكاني تذوّق الشاي؟

- بالطبع! أجابت.

غير أنّها لم تكن قد وافتهما بعدُ الى الحجرة حيث ينتظران.

كانت شيكاكو قد بسطت صحيفة على ركبتيها لتلقُّفِ الشعيرات المقصوصة. شعيرات قاسية كوبر لحية رجل. وقد رأى كيكوجي، الفتى، كلَّ شيء.

كان الوقت ظهراً ومع ذلك كانت الفئران تتقافز وتتراقص على السطح مُحدثةً جلبةً هائلة. وفي الخارج، قرب الرواق، كانت شجرة درّاقن مزهرة.

جاءت شيكاكو أخيراً وجلست أمام الموقد لتصنع الشاي إلاّ أنّ شيئاً غامضاً كان يسري في حركاتها كأنّ أفكارها تسرح في مكان آخر.

بعد انقضاء عشرة أيام تقريباً، سمع كيكوجي أمّه وهي تسرُّ إلى أبيه بصوتٍ من

(*) في الصالون الياباني، حيث تُستبعد أي زينة نافلة، يُستخدم التوكونوما، وهو موضع مرتفع قليلاً يحتلّ عرض حائط الصدر، كإطارٍ للزينة البسيطة المنتقاة: وتتألّف من كاكيمونو (رسم، أو لوحة ملوّنة أو لوحة خطّ تتدلّى على الحائط وقد ثُبّت طرفها الأعلى بلفافةٍ أفقية) ومن كيبانه (باقة ورود مختلفة) أو أي تحفة فنية. لا أكثر.

يفشي سرّاً عظيماً، بأنّ شيكاكو لن تتزوّج بسبب البقع التي تشوّه نحرها. كانت والدة كيكوجي تقول هذا بسذاجة ظنّاً منها أنّ زوجها لا يعلم شيئاً عن هذا الأمر. وكان يبدو عليها بوضوح أنّ إشفاقها على شيكاكو لا يخلو من تأثر فيما الاضطراب الصادق يظهر على وجهها.

- آه! أوه!

كان والد كيكوجي لا يستخدم سوى ألفاظ تعجّب بسيطة ليتصنّع الدهشة حيال ما ترويه زوجته. ثمّ يقول لها في النهاية:

- قد لا يكون الأمر بمثل هذه الخطورة. . . يكفي أن يكون الزوج العتيد على علم بهذا الأمر وأن تُسوَّى المسألة قبل الزواج!

- هذا ما قلته لها أنا أيضاً، ولكن، مع ذلك، أنت تدرك كم يصعب على إمرأة أن تعترف بأنّ صدرها مكسوّ ببقع كبيرة!

- ليس هذا ما عنيتُ ولكنّها ليست فتاة صغيرة!

- برغم كلّ شيء ليس لائقاً أن تُقال مثل هذه الأمور. لو أنها مشكلة رجل، لكان الأمر مختلفاً. حتّى لو لم يفش سرّه إلا بعد الزواج، فلن يكون الأمر أكثر من دعابة وسرعان ما يطويها النسيان.

- وتلك البقع، هل رأيتها؟

- ماذا أصابك! لا تتفوّه بحماقات!

- إذن هي أخبرتك، وهذا كلّ ما في الأمر!

- طبعاً. جاءت اليوم من أجل درس الشاي، ومن حديثٍ لآخر أسرّت إليّ بما تعانيه. كنّا نتحدّث عن أي شيء ولا شيء. وأحسب أنّها أخبرتني بمحض المصادفة دون أي قصد منها.

أصغى والد كيكوجي إليها ومكث صامتاً.

- لنفترض أنّها تزوّجت، أردفت الأمّ قائلة. فماذا عن إحساس الزوج في اعتقادك؟

ـ لا شكّ أن منظر البقع لن يكون ممتعاً، بل لعلّه يكون مقزّزاً في البداية. ولكن من يدري، مع الوقت، إذا كان مثل هذا السرّ لا يُخفي جانباً مُستحبّاً، بل ومثيراً ربّما؟... حتى أنني أسأل نفسي عمّا إذا كان هذا العيب لا يؤدّي إلى إبراز حُسن المزايا الأخرى كنوعٍ من مُبرِز الأضداد. وبأية حال أنا لا أرى في ذلك أيّ عائقٍ ذي معنى.

ـ حاولت أن أخفّف عنها مردّداً على مسامعها مثل هذا القول وعِنْدها فقط أسرّت إليّ بأنّ الوسمة تغطي ثديها أيضاً.

ـ حقّاً؟

ـ أجل، وهي تفكّر في الطفل الذي قد تنجبه وعليها أن تُرضعه. وهذا ما يكدّرها. فحتّى لو استقامت أمورها مع الزوج فماذا يكون من أمرها مع الطفل؟

ـ أتقصدين أنّ هذه الوسمة قد تعيق رضاعة الوليد؟

ـ لا، ليس هذا ما عَنيتُ. المشكلة أنّها لا تتقبّل فكرة أن تكون هذه البقع اللعينة أمام عيني الطفل حين ترضعه من ثديها. أنا، من جهتي، لم أفكر في هذا الأمر. ولكنْ حين تكون أنت نفسك المبتلى بهذه البقع الفظيعة، فمن الطبيعي أن تتوقّع كل العواقب التي قد تنجم عنها. المولود سيرضع منذ ولادته. وحين يفتح عينيه على العالم ستكون هذه البقع اللعينة على ثدي أمّه هي أوّل ما تبصره عيناه. وهكذا تقترن أولى انطباعاته عن الدنيا وأولى أحاسيسه حيال أمّه بمنظر تلك البقع البغيضة على نحرها... فترسخ في ذاكرته صورةً لا يمحوها الزمن...

ـ بالطبع، بالطبع... ولكنْ ألا تعتقدين بأنّكِ تبالغين بعض الشيء؟

ـ ربّما، بلى، فهي، في آخر الأمر، تستطيع أن تُطعم الطفل حليب بقر أو أن تستقدم مرضعة لهذا الغرض.

ـ المهمّ، في اعتقادي أن تكون قادرة على إرضاع طفلها بنفسها.

ـ أقول لك إنّ الأمر مستحيل! يا لها من حكاية مؤثرة يتفطّر قلبي لسماعها. فأنا لم أستطع تمالك دموعي حين أخبرتني. حاول أن تتخيّل قليلاً صغيرنا

كيكوجي : أوتظنّ فعلاً أنني كنت لأرضعه، أنا نفسي، لو كانت لديّ مثل هذه البقع على ثديي؟

ـ هذا صحيح، قال الأبُ مذعناً.

كان وجه كيكوجي يمتقع لرؤية والده وهو يتصنّع الجهل بكل شيء. ويثور الغضبُ في نفسه، لأنّه رآها، هو، كيكوجي الصغير، أيضاً، تلك البقع التي تغطي نحر شيكاكو. وهذا الأب الذي لم تبدر منه أي علامة من علامات الحَرَج لوجود ابنه الصغير برفقته، أصبح مقيتاً في عينيه، وبكلّ ما أوتي من مشاعر المهانة!

لكنْ إذ يتذكّر، اليوم، هذه القصّة بعد انقضاء عشرين عاماً، لا يستطيع كيكوجي إلّا أن يبتسم حين يفكّر في مقدار الحرج الذي لا بدَّ أن يكون والده قد أحسّ به، في الحقيقة، بل مقدار إحساسه بما يفوق الحرج بكثير.

ومع ذلك غالباً ما كان كيكوجي هذا يستعيد كلام أمّه ويردّده في سرّه. وكم من مرّة استبدّ به الهلع لمجرّد التفكير باحتمال أن يكون له أخ غير شقيق أو أخت غير شقيقة، طفلٌ يُرضعه ذلك الثدي الموسوم، ذلك الثدي المدنّس بوسوم تلك الأمّ التي ليست أمّه! وكان يشعر بالخوف ليس فقط من أن يكون له أخوة أو أخوات، هم ثمرة فراش زوجي آخر، بل من مجرّد وجود هذا الولد العتيد: وكان لا يتمالك نفسه عن التفكير في أنّ رضيعاً يمصّ حليبه من ثدي مغطى بوسوم الولادة الفظيعة تلك، وبشعيراتها الكثة الخشنة، لا بدّ من أن يكون في طبعه سمة ما من سمات الشيطان.

لحسن الحظ، لم ترزق شيكاكو بأولاد. وقد يكون والد كيكوجي هو الذي لم يشأ أن يُنجب منها؟ ومَنْ يدري إنْ لم يكن هو نفسه الذي أوحى إليها، بطريقة أو بأخرى، بحكاية البقع والرضيع المؤثرة هذه، والتي كانت شديدة الوقع على والدة كيكوجي، وكلّ هذا لأنّها صمّمت على عدم الانجاب؟ والمؤكّد بأية حال، أن شيكاكو لم تُرزق مولوداً، لا قبل وفاة والد كيكوجي ولا بعد وفاته.

ولكن أيضاً قد تكون اعترافات شيكاكو، التي جاءت بعد وقت قليل على اكتشاف كيكوجي السرّ برفقة أبيه، ليست سوى حيلة مدبّرة سَلفاً تحوّطاً لما قد يُسرّ

به الطفل إلى أمّه. مَن يدري؟

ومع ذلك لم تتزوّج شيكاكو أبداً، وبالإمكان السؤال أيضاً ما إذا كانت البقع الخبيثة لم تلعب، في النهاية، دوراً حاسماً في تقرير مصيرها.

أمّا كيكوجي فقد رسّخت الصدمة التي تلقّاها في طفولته صورة هذه العلامات وحفرتها في ذاكرته إلى الأبد. مَنْ يدري، ربّما تكون بدّلت من قدره المرسوم شيئاً.

أوّل ما خطر له حين تلقّى الدعوة وأدرك أن شيكاكو تدبّرت له أمر اللقاء بفتاة خلال حفل الشاي، كان منظر تلك العلامات التي تغطي ثديها، ماثلاً في ذهنه محفوراً في ذاكرته.

«لا بدّ أن لها بشرةً ناعمة ورقيقة، تلك الفتاة التي تودّ شيكاكو أن تعرّفني بها»، هذا ما كان يتردّد في ذهن كيكوجي ساهماً، كأنّه يُقابل ما بين الضدّين.

ثمّ عاودته صورة أبيه والسؤالُ عمّا إذا كانت أصابعه لم تداعب هذه البقع بلمساتها، أو إذا كان يلهو بها، أحياناً، بعضعضاتٍ خفيفة..

تلك كانت إذن التهيؤات التي راودته أثناء سيره تحت ظلال الأشجار قرب المعبد، مُنصتاً إلى تغريد الطيور.

بعد ذلك (أي بعد انقضاء أعوام على الحادثة التي طبّعت طفولته)، فقدت شيكاكو، وبصورة ملفتة، كلَّ ما في المرأة من مظاهر الأنوثة سواء في مشيتها أو في مظهرها. وأصبحت أشبه بكائن بلا جنس. وكان كيكوجي، الغارق في أفكاره يراها، دائمة الحركة زاخرةً بالحيوية، تتصدّر مجلس الشاي الذي تدعو إليه. «ولكنْ، كان يردّد في سره، لا بدَّ أن البقع التي تغطّي صدرها لم تعُد ظاهرة كما في الماضي...».

ثمّ استغرقته نوبةُ ضحك لما يراوده من تخيّلات وأفكار لا تليق به، حين سمع وراءه وقع خطى فتاتين مُسرعتين في الممرّ. حاد كيكوجي قليلاً مفسحاً لهما في الطريق ولم يلبثْ أن عاجلها بالسؤال عمّا إذا كان هذا الممرُّ هو الذي يُفضي إلى الجناح حيث تقيم الآنسة كوريموتو حفلَ الشاي.

ـ أجل، يا سيّد! أجابت الفتاتان بصوتٍ واحد:

كـان كيكـوجي يعـرف جيّـداً إلى أين يفضي الممرّ، إذ كـان يكفي، لـو ضـلّ الـطريقَ فعلاً، أن يـرى ملابس الفتـاتين ليعلم أنّهما كـانتا في طـريقهـما إلى حفـل الآنسـة كوريمـوتـو. وإذا أصرّ عـلى سؤالهـما، فلكي يُـرغم نفسـه بمعنى مـا، عـلى المشاركة، هو أيضاً، في هذا الحفل.

كـانت إحدى الفتـاتين تحمـلُ فوروشيكي(*) من الحـرير الـزهـري وعليـه نقش سمبازورو أبيض(**). كانت جميلة.

(*) قطعة قماش مربّعة تُستخدم كغطاء للأواني التي تُحمل باليد.

(**) لعبة أطفال تقوم على صنع طيور صغيرة من ورق.

II

عندما أصبح بمحاذاة طنف الجناح كانت الشابتان اللتـان سبقتاه تخلعـان خفاف التابي(*) وتنتعلان خفافاً نظيفة. ألقي كيكـوجي نظرةً فـاحصة من فـوق كتفيهما إلى ردهة الشاي التي كان بابها مفتوحاً: كانت ردهـة تتسع لثمانية حُصُر من القصب حيث اجتمـع عدد كبـير من المدعـوين. كنّ جميعهن يرتـدين الكيمونوات بـألـوانها الزاهية ويجلسن متلاصقاتٍ جنباً إلى جنب فتتلامس أطرافهنّ.

لم تلبث شيكـاكو، بنـظرتها اليقـظة، أن لمحت ضيفها فنهضت لاستقبـاله عنـد العتبة.

ـ آه! تفضّل، تفضّل بالدخول! كم يعزّ أن نراك هنا: فمرحباً بك. من هنا لو سمحت، تفضّل، بلا أدنى حرج، أرجوك!

وفيما كانت تواصل تـرحيبها بـه أشارت إلى بـاب يُفضي إلى محلّ الصـدارة قرب التوكونوما.

اقترب كيكوجي من شيكاكو وقد تورّدت وجنتاه لإحساسه بأنّ أنـظار المدعـوين مثبتة عليه، وسألها:

ـ أجميع المدعوين من النساء؟

ـ أوه! كان هناك بعض الرجال ولكنّهم غادروا منذ قليل. أنت زينة مجلسنا!

ـ أنا، زينة! قال كيكوجي معترضاً.

(*) خفّ التابي (Tabi) نوع من الجوارب ذات الإصبع لإبهام الرجْل.

ـ بلى، بلى، إنّه المقام الذي يليق بك تماماً.

أشار كيكوجي بحركة من يده إلى أنّه يفضّل أن يدخل من الباب الآخر. وما أن استدار حتّى رأى الفتاتين اللتين بدّلتا، منذ لحظة، خفافهما ولفّتا تلك التي خلعتاها بالمنديل الموشّى بالسمبازورو، تنتظران بوقار بالغ عند المدخل، أمام الباب، أن يمرّ هو أوّلاً.

تقدّم كيكوجي في فناء المدخل حيث فوضى الملابس والحاجيّات التي تركها المدعوون هناك، وعلب الحلوى، وصناديق الأواني الثمينة وأغلفتها المخصّصة لمجالس الشاي. وتحت سقيفة الميزويا(*) المائلة، كانت إحدى الخادمات تغسل الأقداح والأواني الأخرى.

لحقت شيكاكو بكيكوجي فانحنت وهي تضع كفّيها على ركبتيها وجلست قُبالته.

ـ كيف تجدها؟ همست في أذنه. إنّها لطيفة، أليس كذلك؟

ـ مَنْ تقصدين؟ سألها كيكوجي هامساً هو أيضاً. أتقصدين الفتاة التي تحمل الفوطة المزركشة بسمبازورو؟

ـ مَنْ يهتمّ بالفوطة؟ وما أدراني أنا! أنا أتكلّم بخصوص احدى الفتاتين اللتين تقفان هناك، هناك عند المدخل، وأقصدُ أجملهما. إنها الآنسة اينامورا: إينامورا يوكيكو.

وافق كيكوجي وهو ساهٍ، بحركة من رأسه.

ـ يبدو لي أنّ نظرتك ثاقبة وإلاّ لما استطعت أن تلاحظ تفاصيل النقوش على الفوطة، قالت شيكاكو. حتّى أنني حسبتُ في البداية أنكما وصلتما معاً! ولكنْ، أعترفُ بأنَّ مثل هذا لا يكون إلاّ من قبيل الاستعجال!:

(*) لحيقة عند مدخل جناح الشاي، تُستخدم كحُجرة خدمة حيث تُغسل وتجهّز كل الأواني الضرورية لمجلس الشاي.

ـ ماذا تقصدين بقولك هذا؟ سأل كيكوجي معترضاً.

ـ أقصدُ أنّك محظوظ على أي حال، لأنك ألتقيتها في طريقك إلينا. ثمّ أنت تعلم جيداً أن والدك كان على صلة وثيقة بعائلة اينامورا.

ـ حقّاً؟

ـ كانت العائلة تملك متجراً للحرائر في يوكوهاما. ويجب أن تعرف أنّ الفتاة تجهل كلّ شيء عمّا نحن في صدده، أقول لك ذلك لتكون على بيّنة من أمرك. أمّا أنت فبإمكانك أن تنظر إليها مليّاً.

الحقيقة أن ثرثرة شيكاكو تجاوزت حدود الهمس، ولم يكن هناك ما يفصلهما عن الصالة سوى باب واحد. وما أن تنبّه كيكوجي لهذا الأمر حتى أحسّ بضيق. غير أن شيكاكو اقتربت منه مجدّداً وأسرّت في مسامعه:

ـ ولكنْ لسوء الحظ هناك أيضاً ما يُثير الحَرَج... ذلك أنّ السيّدة أوتا... كما تعلم... هنا. وجاءت هي أيضاً برفقة ابنتها...

رمقت شيكاكو وجه كيكوجي بنظرة فاحصة وأردفت قائلة:

ـ أنت تدرك بالطبع أني لم أوجّه لهما الدعوة للحضور هذا اليوم. ولكنّ حفلَ شاي كهذا، مجلس شاي كهذا، لا يقتصر، في المبدأ، على المدعوين، وباستطاعة أيّ كان أن يأتي إليه حتى ولو كان مجرّد عابر سبيل. وكان علينا، منذ بعض الوقت، أن نستقبل رجلين أميركيين وزوجتيهما كانوا هنا بمحض المصادفة. أنا آسِفة. ولكن ماذا كان بوسعي أن أفعل حين جاءت السيّدة أوتا؟ لا بدّ أنها سمعت بمجلسنا فجاءت من تلقائها. وليس عليّ أن أقول لك بالطبع إنّها لا تعلم شيئاً ممّا يعنيك.

وأنا أيضاً لم... همّ كيكوجي بالقول، وما كان يودّ قوله: «وأنا أيضاً لم يكن في نيّتي أن أنقاد إلى لقاءٍ تقليدي بهدف الزواج». ولكن، في اللحظة الأخيرة، أحس بجفاف في حلقه ومكث عاجزاً عن التفوّه بالكلمات التي كانت تتزاحمُ على شفتيه.

ـ على أيّ حال، الأمر سيّان عندك، أليس كذلك؟ وإذا كان هناك مَن ينبغي أن يشعر بالحرج فلا بدَّ أن تكون السيّدة أوتا والسيّدة أوتا وحدها!

لم يتمالك كيكوجي غيظه لطريقة شيكاكو في التحدث إليه.

ممّا لا شكّ فيه أن علاقتها بوالده لم تدم طويلاً ولم تستغرق أكثر مما تستغرقه في العادة أية مغامرة عابرة، ولكنّها واصلت تردّدها إلى منزلهم حيث كانت تسدي خدماتها المفيدة كمدبّرة منزل حتّى وفاته. وبالطبع كان حضورها في مجالس الشاي طبيعيّاً. غير أنّها كانت تأتي أيضاً للمساعدة في تدبير شؤون المنزل حتى حين يستضيفون زوّاراً عاديين.

وكان ممّا يُثير الضحك فعلاً، آنذاك، لو أنّ والدة كيكوجي أبدت أيّاً من مشاعر الغيرة حيال إمرأة تكاد لا تمتلك شيئاً من مزايا الأنوثة. ومع ذلك فالمؤكّد أنّها اكتشفت في النهاية أن زوجها يعرف جيّداً، ولسبب بديهيّ، أمر البقع التي تغطي نحر شيكاكو. إلاّ أنها لم تدرك ذلك إلاّ بعد انقضاء وقت طويل على انتهاء علاقته بها، وكانت شيكاكو تظهر بمظهر اللامبالاة التي يُبديها من استطاع أن ينسى كل شيء، وتقف بلا أدنى تأثّر إلى جانب الزوجة التي كان من شأنها أن تكون منافستها.

أمّا كيكوجي فقد اعتاد، من جهته، أن لا يُعير وجودها أي انتباه واستطاع شيئاً فشيئاً أن ينسى الأثر السيّىء الذي وسم طفولته. وراح يُعاملها بشيءٍ من الاحتقار. أمّا أن تكون هذه المرأة بارعة في سلوكها بحيث لا يعود ممكناً الاستغناء عن خدماتها ومُتخليّة عن كلّ ما من شأنه أن يذكّر بأي جاذب أنثوي! فإنّ مساندة هذه العائلة، في المقابل، هي التي أتاحت لها أن تحقق نجاحاً كأستاذة في فنّ الشاي.

والأرجح أن المرأة في داخلها لم تعرف، كأثرٍ تخلّفه علاقة حبّ في حياتها، إلاّ مغامرتها العابرة والوحيدة مع والد كيكوجي، ثمّ زال هذا الأثر بعد انتهاء العلاقة. ولذا لم يكن في استطاعة كيكوجي بعد وفاة والده إلاّ أن يبدي حيالها شعوراً أقرب إلى الشفقة.

أمّا والدة كيكوجي فكيف كان لها أن تغذّي مشاعر الحقد إزاء شيكاكو في الوقت الذي كان عليها فيه أن تنشغل بمشكلة مختلفة تماماً، وأشدّ إلحاحاً بما لا يُقاس، وتعني السّيدة أوتا مباشرة؟

ذلك أنّ السيّد أوتا ووالد كيكوجي، وهما من مزاولي فن الشاي، كانت تربطهما علاقة صداقة حميمة. وعند وفاة السيّد أوتا تولّى والد كيكوجي بنفسه بيع المجموعة الفنيّة التي كان صديقه يمتلكها. وهكذا نشأت صلته بأرملة صديقه التي أصبحت عشيقته.

لم تتردّد شيكاكو في أن تعلمَ الزوجة بالأمر دون إبطاء. فقد كانت تشعرُ بأنّها منحازة إلى صفّها بميل طبيعي ولا توفر جهداً في سبيل ذلك. وأحياناً بشيء من الإفراط. ألم تكن تتبع والد كيكوجي كظلّه لمراقبته؟ ألم تذهب تكراراً لزيارة الأرملة وتخاطبها بكلٍ ألفاظ الملامة والعتاب؟ وكأنّ مشاعر الغيرة التي دفنتها في التراب منذ سنين وسنين، كانت تنتعش فجأةً للمناسبة.

وفي المقابل كانت والدة كيكوجي أقرب إلى الأحساس بالخجل من تدخّل شيكاكو الصاخب والمتكرّر والذي كان يهدّد بالإساءة إلى سمعة العائلة. ذلك أنّ ما مِن شيء كان ليوقف شيكاكو تلك عند أي حدّ، وما كانت تتوانى عن كيل عبارات القدح والذمّ بالسيّدة أوتا حتّى في حضور الصبيّ كيكوجي. وذات يوم، عندما أرادت والدته، مستاءةً، أن تجبرها على السكوت أجابتها بأنّ هناك ما هو أدهى.

– في آخر مرّة، قالت، وفيما كنتُ أوجّه أقذع عبارات الملامة لأرملة السيد أوتا سمعتُ نحيب فتاة في الغرفة المجاورة. وكانت ابنتها التي وقفت تسترق السمع عند الباب.

– فتاة. لها إبنة إذن؟ قالت والدة كيكوجي مقطّبةً.

– أجل، صبيّة في الثانية عشرة من عمرها على ما أخبرتني. لا بدّ أنّها حمقاء، السيّدة أوتا! فبدل أن توبّخ ابنتها، حسبما توقّعت، راحت تضمّها إلى صدرها

وتجلسها على ركبتيها قبالتي لكي يُتاح لها أن تلعب دورها في هذه الملهاة التي تستدرّ الشفقة!

ـ يا للطفلة المسكينة!

ـ وهي أيضاً الوسيلة الوحيدة التي نستطيع استخدامها لجعل أمّها تعاني من عذاب الضمير! . . . ما دامت الطفلة لا تجهل شيئاً مما يدور حولها في المنزل.

وأضافت شيكاكو وقد التفتت نحو كيكوجي:

ـ ومع ذلك فهي طفلة ساحرة ولها وجه مُنمنم جميل ومدوّر. وبالمناسبة أليس لصغيرنا السيّد كيكوجي كلام، هو أيضاً، ينبغي أن يواجه به والده؟

ـ آه! ألن تكفّي إذن عن بث سمومك في الأنحاء! صرخت الأم بها أخيراً وقد أرهقها كلام شيكاكو المتواصل.

ـ ليس من المستحبّ، يا سيّدتي، أن تُحفظ كلّ هذه السموم في القلب. وعليكِ في النهاية أن تصمّمي على لفظها إلى الخارج! أنت تزدادين نحولاً فيما تزداد غريمتك نضارةً عمّا كانت عليه من قبل. وهي تظنّ لحماقتها أنه يكفي أن تعتصر دموعها انتحاباً وأن تُبدي منها ما يُثير الشفقة لكي تبرأ من أفعالها! وتخيّلي أنها ما زالت تحتفظ في حجرة الاستقبال بصورة مُكبّرة لزوجها الراحل! آه! أنا لا أفهم فعلاً كيف يقدر السيد ميتاني على تحمّل كل هذا!

والغريب أنّ السيّدة أوتا هذه بطلة الأحاديث المقذعة التي سمعها كيكوجي، كانت هناك، جاءت بعد وفاة والد كيكوجي، لحضور حفل شاي تقيمه شيكاكو. والأدهى أنّها لم تأت بمفردها بل جاءت برفقة ابنتها!

أحسّ كيكوجي بقشعريرة تتسرّب إلى تضاعيف قلبه.

فإذا كان صحيحاً ما تدّعيه شيكاكو بأنّ السيّدة أوتا لم تكن مدعوة هذه المرّة، فإنّ هذا الأمر لا يبدّد مقدار دهشته لما يراه، ويؤكد أن علاقتهما قد استمرت برغم كل شيء بعد وفاة والده.

ألأنّ شيكاكو تلقّن السيّدة أوتا أصول فن الشاي؟ أو تفعل ذلك بناءً على رغبة

السيّدة والدته؟ ذانك هما السؤالان اللذان طرحهما كيكوجي على نفسه.

- إذا كنت تُصرّ على عدم رؤيتها، قالت شيكاكو وهي ترمقه بعينين سائلتين، فسأطلب منها أن تغادر المكان.

- الأمر سيّان عندي.. إلاّ إذا كانت ترغب في المغادرة فلتفعل عندئذٍ ما يحلو لها!

- إمرأة مثلها؟ لا تحسبنّ أبداً أنّها قادرة على مثل هذه اللياقات! وإلاّ لما سبّبت لوالديك ذلك القدر من المتاعب.

- إنها برفقة إبنتها أليس كذلك؟ سألها كيكوجي الذي لم يكن يعرفها من قبل. فإذا كان لا يخفي ضيقه من التعرّف إلى فتاة الفوطة المزركشة بنقش الطيور البيضاء بحضور السيّدة أوتا فكم كان يبدو صعباً عليه أن يلتقي هنا ابنتها هي لأوّل مرّة.

كان يجد صعوبة في متابعة إصغائه لهمسات شيكاكو التي تدوّم في أذنيه! لقد كان في كلامها ما يستثير نفوره منها.

- بأية حال، قال مقاطعاً كلامها بنهوضه، أصبح الجميع يعرفون الآن أنني هنا. ولذا لا أستطيع الانسحاب الآن.

دخل إلى الصالة عبر الباب المجاور للتوكونوما، وبهذه الطريقة أفضى مباشرةً إلى مكانه في صدر المجلس.

كان الوافد الجديد ينحني للتحيّة فيما شيكاكو التي لحقت به تقدّمه للمدعوين بصوت عالٍ لا يخلو من نبرة احتفاء: «يسرّني أن أقدّم لكم السيّد ميتاني نجل أحد أشهر مزاولي فن الشاي وجامعي أوانيه الثمينة».

انحنى كيكوجي مرّة ثانية، وفيما كان يرفع رأسه رأى قبالته كلّ تلك الوجوه الأنثوية التي، في غمرة ارتباكه، لم يستطع، في البداية، أن يتبيّن ملامحها، إذ غشت عينيه حرائر الكيمونوات(*) البرّاقة. وريثما تمالك نفسه لاحظ أنّ السيّدة أوتا تجلس قبالته مباشرة.

(*) جمع الكيمونو، الرداء الياباني التقليدي.

ـ يا لها من فرصة سعيدة، قالت، يا لها من فرصة سعيدة أن نراك هنا!

وكان باستطاعة المدعوات جميعهن أن يسمعن صوتها المحبّب ونبرتها البسيطة.

ـ لم نرك منذ وقت طويل!

وبحركة خفيفة شدّت كمّ ابنتها الجالسة بجانبها، وكأنها تدعوها لتحية الشاب بدورها. فأنحنت الفتاة أمامه وقد بدا عليها الارتباك وتورّدت وجنتاها.

لم يكن كيكوجي يتوقّع منها مثل هذا التحبّب: إذ لم يلمح في سلوك السيّدة أوتا أيّ أثر للنفور أو الحرج، ولم يرَ في ما صدر عنها إلاّ غاية الرقّة والتلقائيّة. فقد كانت تبدي له غبطتها بهذا اللقاء بلا مواربة غير مكترثة بما قد يظنه الآخرون.

أما ابنتها فقد مكثت مطرقةً وما أن انتبهت السيّدة أوتا إلى هذا الأمر حتّى تورّدَ وجهها هي أيضاً. إلاّ أنها واصلت التحديق بكيكوجي وكأنها تريد أن تقول له كم كانت تودّ أن تكون أقرب إليه لتحدّثه.

ـ أنت أيضاً تزاول فنّ الشاي؟ سألت بعد تردّد.

ـ لا، للأسف، فأنا جاهل تماماً لأصول هذا الفن.

ـ أوه! ولكنْ لا يُعقل إلاّ أن تكون هذه الحرفة في دمك!

وبدت فعلاً شديدة التأثر وقد امتلأت عيناها بالدموع.

لاحظ كيكوجي الذي لم يـر السيّدة أوتا منذ مراسم دفن والده أنّها لم تتبدّل خلال هذه السنوات الأربع. فهي ما زالت تحتفظ بذلك الوجه الذي يجعلها تبدو أصغر سنّاً وذلك العنق الليّن والدقيق، والرقبة الطويلة التي يُبْرِزُ محاسِنَها الفرقُ الكبير بينها وبين الكتفين المشدودتين، كاملتي الاستدارة. الأنف دقيق والفم صغير إذا ما قُورنا بالعينين. ذلك الأنف الذي حين تراه، باستوائه البديع ونمنمته، لا تستطيع إلاّ أن تبتسم. وتلك الشفة السفلى المكتنزة قليلاً والتي تتدلّى رخوةً بعض الشيء إذا همّت بالكلام...

لاحظ كيكوجي أن ابنة السيّدة أوتا لها الرقبة الفارعة نفسها والكتفان

المشدودتان والمستديرتان. أمّا فمها فيبدو أكبر من فم أمّها بوضوح وإن كانت تبقي شفتيها مطبقتين مزمومتين بشدّة. وكان كيكوجي يرى أن في المشهدِ شيئاً من اللُطفِ كأن يبدو فم الأمّ على هذا القدر من الدقّة إلى جانب فم الابنة الكبير. أمّا العينان فللإبنة عينان أكثر اتساعاً. وربّما أشدّ سواداً من عيني الأمّ، ومن ينظر إليهما يحسب أنهما غارقتان في الأسى. . .

وفي تلك اللحظة التفتت شيكاكو بعد أن تفحّصت جمر الموقد وقالت:

ـ يا آنسة إينامورا هلّا أعددت الشاي احتفاءً بالسيّد ميتاني؟ فأنت، إن لم يخطىء ظنّي، لم تؤدّي بعد واجب الخدمة لهذا اليوم.

ـ بكلّ سرور، أجابت الفتاة وقد همّت بالنهوض.

كان كيكوجي يعرف جيّداً أنّ فتاة السمبازورو تجلس بجانب السيّدة أوتا برغم امتناعه عن رفع أنظاره نحوها ولو مرّة واحدة منذ أن رأى السيّدة أوتا وابنتها.

استدارت الفتاة من أمام الموقد الذي كانت اقتربت منه وسألت شيكاكو عن الكوب الذي تحسن أن تنتقيه.

ـ أحسب أن كوب الأوريبة(*) الذي ترينه أمامك يفي بالغرض، قالت شيكاكو. إنّه الكوب الذي كان والد السيّد ميتاني يحبّه كثيراً. وعد هديّة لي منه، أضافت قائلةً وقد التفتت نحو كيكوجي.

وبالفعل كان بإمكان كيكوجي أن يتذكر جيّداً هذا الكوب الذي وضعته الفتاة أمامها. كان والده يؤثر استعماله في مجالس الشاي، وقد حصل عليه من السيّدة أوتا بعد أن اشتراه منها.

والسيّدة أوتا، ما هي الأفكار التي تراودها وما الذي تشعر به إذ ترى هذا الكوب الثمين يظهر مجدّداً هنا، في هذا المكان، بعد أن كان جزءاً من المجموعة التي امتلكها زوجها؟ كان كيكوجي يطرح على نفسه هذا السؤال وقد هاله ما أبدته

(*) نوع من الخزفيات المصنوعة في القرن السادس عشر. تتميّز بالبساطة التي تجعلها تُستخدم، بديهة، في مجالس الشاي.

شيكاكو من استخفاف بأصول اللياقة.

ولكن ألا يجدر القول أيضاً إنّ السيّدة أوتا ليست أقلّ استخفافاً بمشاعر الآخرين وبأصول اللياقة؟

إنّ ماضي هاتين المرأتين المُجرّبتين كان يتراءى له كجحر الأفاعي فيما الفتاة تُنهي، برويّة وبراعة، إعداد الشاي الذي سيُحتسى احتفاءً به.

كان كيكوجي يزداد إعجاباً بجمالها.

III

من المؤكّد أنّ فتاة الفوطة المزركشة بالسمبازورو لم تفطن لنوايا كيكوجي الدفينة. فقد أنهت صنع الشاي دون أن ينتابها أي حرج واقتربت لتقدّم الكوب بنفسها إلى كيكوجي ووضعته أمامه.

تذوّق كيكوجي الشاي أوّلاً ثمّ راح يتأمل كوب الأوريبة: طلاء خزف أسود يتخلّله بياضٌ في أحد المواضع وقد نقشت عليه بالأسود ورقة سرخس رفيعة.

ـ أنت تذكره، أليس كذلك؟ سألت شيكاكو مِن حيث تقف بعيدةً بعض الشيء.

ـ بلى، يبدو لي أنني أذكر. . . أجابها بنبرةٍ غير واثقة وهو يعيد الكوب الى مكانه.

ـ أمام هذه السرخسيّة الطريّة ينتابُنا الشعور بأننا فعلاً في مكانٍ ما في الجبل، قالت شيكاكو موضحةً. إنه كوب يَليق تماماً بأوّل أيام الربيع، وأنا أعلم أن والدك كان غالباً ما يستخدمه. وقد لا يكون الموسم، اليوم، في أوّله إلاّ أن هذا لن يبدّل شيئاً من متعة السيّد ميتاني في استخدام هذا الكوب للذكرى.

ـ أوه! أمام مثل هذه التحفة الثمينة، أجاب كيكوجي، ليس مهمّاً أن يكون أبي قد حملها بين يديه! وإذا ما فكّر واحدنا أنّ هذا الكوب يعود إلى عصر موموياما، حين كان ريكيو العظيم لا يزال حيّاً، وأنّه تنقّل من جيل إلى جيل منذ نحو أربعة قرون بين الأيدي الحاذقة لعددٍ كبير من أساتذة فن الشاي، فكم تبدو ضئيلةً عندها المكانة التي يحتلّها أبي في مثل هذه السلسلة!

كان كيكوجي يودّ بكلماته هذه أن يطرد من رأسه ما يمثّله هذا الكوب، اليوم،

من معنى، ولكنّ أفكـاره لا تلبث أن تعود إليـه. فقد انتقـل الكوب أيضـاً من يـد السيّـد أوتـا إلى زوجتـه، ومن السيّـد أوتـا إلى والـده هـو، ومن هـذا الأخـير إلى شيكاكو. وها إنّ السيد أوتـا ووالد كيكوجي قد أصبحا معاً في عالم الأمـوات، فيما التقت المرأتان هنا في مجلس الشاي هـذا. صحيح إذن أنّ لـلأشياء مصـائر غـريبة عجيبة، ومصير هذا الكوب كان على قدرٍ لا بأس بـه من الغرابـة لمجرّد التمعّن في هذا الجزء البسيط من تاريخه! ومـا يزيـد من فرادتـه أنّ جميع، أو معـظم السيّدات الحاضرات، السيّدة أوتا وابنتها وشيكاكو والآنسة ايناموروا وفتيات أخريات أيضـاً، قد لثمن هذا الكوب القديم بشفاههن ولمسنه بأيديهنّ وتحسَّسنَ المـادة الرهيفـة التي صنع منها.

ولم تلبث السيّدة أوتا أن أعلنت أمام ذهول كيكوجي الشديد:

ـ أودّ، أنا أيضاً، أن أتذوّق الشاي من هذا الكوب.

الأمر الذي يصـحُّ معه التسـاؤل ما إذا كـانت هذه السيّـدة على هـذا القدر من الحماقة أم أنها تتعمّد مثل هذا الكلام غير المتحفّظ والوقح، أمّا كيكوجي فقد كـان ينظر متأمّلاً إلى إبنتها التي ظلّت مُطرقةً بشيءٍ من الأسى.

عـاودت الفتاة ذات الـطيور البيضـاء صنع الشـاي ولكن، هذه المـرّة، إكـرامـاً للسيّدة أوتا. وكان المدعـوون جميعهم يراقبـون كلّ حـركة من حـركاتهـا. لا، من المؤكّد أن الآنسة إيناموروا لا تعرف شيئاً عن قصّـة كوب الأوريبـة الأسود الكئيبـة: كانت تؤدّي كل حركة من حركاتهـا وفق الأصول التي تلقّنتهـا. وكان أداؤهـا مجرّداً من أيّ أسلوب شخصي. دقة جلستها وبساطتها. وكانت استقامة جذعها من أعلى النحر حتى طرف الركبتين، تضفي على حركتها مسحةً من الأناقة لا شبهة فيها.

كـانت أوراق الشجر تشبـك ظلالهـا على النـافـذة، من ورائهـا، ويعكسُ نـورٌ شعْشَعٌ بريقَه الناعمَ على كتفيها، وينزلقُ على كُميْ الكيمونو فيضاعف ألقَ ألوانه. حتى شعرها كان يبدو لامعاً. وفي غمرة هـذه الشفافيـة، التي تفيض إضاءتهـا عن مقصورة شاي، كانت زهرة صباها تتفتح. كانت الفتاة تستخدم فـوطة من الحـرير القرمزي فلا يثير هذا اللون بين يديها أيَّ انطباعٍ بـالتنافـر بل عـلى العكس، كان

يشيع مناخاً من الطراوة المفعمة، كأنّ زهرة تتفتّح في كل حركةٍ من حركاتها، ومن حولها كأنّها رفرفة ألفٍ من الطيور البيضاء.

قالت السيّدة أوتا حاملةً بيدها كوبَ الأوريبة:

- إن لون الشاي الأخضر يُذكّر، في طُغيان هذا اللون الأسود، بالشجر المورق في بدايات الربيع، عندما تتفتّح البراعم على الأغصان.

وحرصت على أن تكتم حقيقة أنّ الكوب كان في الماضي أحد التحف الثمينة التي كان يمتلكها زوجها الراحل.

وكما تقتضي التقاليد، انتقل الحاضرون، بعد أن شارف مجلس الشاي على الانتهاء، إلى ما يُسمَّى «تثمين القطع»، أي تفحّص الأواني التي اختيرت لهذا المجلس. ولكنّ الفتيات الشابّات اللواتي لا يفقهن شيئاً، بالتأكيد، من هذه الأمور، اكتفين بالاصغاءِ إلى شروحات شيكاكو.

إن إبريق الماء (ميزوساشي) ومغرفة القصب (تشاشاكو) قطعتان من الطقم الذي كان يمتلكه والد كيكوجي، إلاّ أن شيكاكو أغفلت ذكر هذا الأمر وكذلك فعل كيكوجي.

غادرت المدعوّات واحدة تلو الأخرى، فيما لازم كيكوجي مكانه. اقتربت السيّدة أوتا وقالت له:

- أرجو أن تقبل اعتذاري إن كنتُ أغضبتك منذ قليل. ولكنْ كيف لي أن أراك دون أن أذكر الماضي؟

- . . . .

- كم أصبحت لَبِقاً!

كانت تحدّثه بصدق كبير والدموع تملأ عينيها.

- والسيّدة الوالدة. . . وا أسفاه! كنتُ أودّ أن أشارك في مراسم الدفن، ولكنني لم أجرؤ في النهاية. . .

انقبض وجه كيكوجي.

ـ يا للأسى! . . . والدك، في البداية. . . ثم والدتك!

ـ . . . . . .

ـ ألستَ عائداً إلى دارك الآن؟

ـ لا، ليس الآن. . .

ـ أتمنّى فعلاً لو نستطيع أن نلتقي مرّة أخرى! فلديّ أشياء كثيرة أودُّ أن أقولها لك. . .

نادت شيكاكو كيكوجي من الحجرة المجاورة فانسحبت السيّدة أوتا ولكن ليس دون أن تبدي له مقدار حرجها وأسفها. أمّا الإبنة التي كانت تنتظر في الحديقة فقد حيَّت كيكوجي في الوقت نفسه الذي حيّته به والدتها ورمقته بنظرةٍ متمادية كما لو أنّها تودّ أن تسرّ له بأمر ما.

في الحجرة المجاورة كانت شيكاكو، بصحبة الخادمة وتلميذاتها، منهمكةً بتوضيب الحصر والأواني.

ـ بماذا حدّثتك السيّدة أوتا؟ سارعت شيكاكو إلى السؤال.

ـ أوه! لا شيء محدّد.

ـ عليك أن تحاذر الاقتراب منها. ويجب ألاّ تخدعك مظاهر الرقّة والبراءة التي تبديها هذه المرأة. فهي تبدو دائماً على هذه الحال وكأنها تواجه كلّ الأمور بالعواطف. ولكن في سرّها لا أحد يعرف بالضبط بماذا تفكّر. إنّها إمرأة غريبة!

ـ ولكنّها، برغم ذلك، لا يفوتها أن تتردّد على مجالسك بانتظام، أليس صحيحاً ما أقول؟ أجاب كيكوجي ساخراً. وبالمناسبة، منذ متى والسيّدة أوتا تواظب على حضور مجالسك؟

غير أنه لم ينتظر جواباً منها لشدّة ما كان يتوق للتخلص من هذا المناخ الخبيث، فخرج مُسرعاً إلى الحديقة حيث لحقت به شيكاكو.

ـ كيف وجدتها؟ إنّها لطيفة، أليس كذلك؟

ـ بلى، بالتـأكيد. ولكن لا أخفي عليـك بأنني كنت أفضّـل ألف مرة أن التقي بها في مكانٍ آخر غير هذا المكان. فوجودك، ووجود السيّدة أوتا وشبح والدي. . . وكلّ هذه الأمور!

ـ ألأنّك تهجس بمثل هـذه الأمور؟ هيّـا دَعْك من كـل هذا! مـا من صلةٍ على الاطلاق بين السيّدة أوتا والآنسة إينامورا.

ـ كلُّ ما في الأمر هو أنني شعرتُ بالضيق لأجلها.

ـ لأجلها؟ ماذا تقصد؟ أنا آسِفـة فعلاً لأن حضـور السيّدة أوتـا قد سبّب لـك مثل هذا الضيق وأكرّر اعتذاري. ولكن فيما يعني الآنسة إينامورا فـأنا أرجـو منك أن تدعها خارج هذا الموضوع! فالأمر مختلف.

ـ حسناً، إذا كانت هذه رغبتك. ولكن أرجو أن تسمحي لي الآن بالـذهاب، كفانا لهذا اليوم.

كان يرغب في قطع الحديث لأنّـه لو تـابع الكـلام في أثناء سـيره لما استـطاع أن ينجـو من رفقة شيكـاكو. وعنـدما أصبـح بمفرده أمـام براعم الأزاليـة التي تفترش أطراف المنحدر تنفّس الصعداء. من المؤكد أنّه كان يلوم نفسه لتلبيته دعوة شيكاكو إلاّ أنّ الأحاسيس التي انتابته عندما رأى الفتاة ذات الطيور البيضـاء كانت لاتـزال تشيع الطراوة في داخله. ولا بدّ أن حضورها هو الذي حال دون إحساسه بـالكدر بعد أن التقى، وفي الوقت نفسه، اثنتين من عشيقات والده. . . ولكن سرعـان ما آستشاط غيظاً لفكرة أنّ هاتين المرأتين لا تزالان هنا، على قيد الحياة، وأنّهما حدّثتاه عن أبيه بينما أمّه هو أصبحت في عـداد الأموات! وعنـدئذٍ انبثقت في مخيّلتـه صورة البقع الدميمة على نحر شيكاكو.

كانت طرابين الأغصان تهـتزُّ قليلاً حـين تداعبهـا نسائمُ المسـاء المنعشة. وكـان كيكوجي قد خلع قبّعته وراح يَسيرُ الهوينا مُمسكاً بها بـإحدى يـديه. ومـا أن اقترب من بـوّابة المعبـد حتى رأى السيّدة أوتـا واقفـةً هنـاك تحجبهـا الـظلال. سـارع إلى التلفّت من حوله ساعياً إلى تجنّب المرور بمحاذاتهـا. كان بـإمكانـه أن يَسلُكَ بعيداً

عنها لو أنّه مرّ عبرَ أحد المنحدرين على جانبي الباب، ولكنّه تابع طريقه قدماً واكتسى وجهه ملامح قسوة.

كانت الأرملة قد رأته، هي أيضاً، من بعيد. وتقدّمت لملاقاته وقد اصطبغت وجنتاها بحمرةٍ ظاهرة.

ـ كنتُ انتظرك، قالت. كنتُ أرغب في أن أراك مرّة أخرى. قد تجدني متهوّرة ولكن يستحيل عليّ أن أدعك تنصرف هكذا. . . أقصد، دون أن أعرف فقط إذا كنّا سنلتقي مرّة أخرى.

ـ وابنتك، أينَ هي؟

ـ فوميكو سبقتني. إنّها مع صديقاتها.

ـ وهل كانت تعلم أنّك تنتظرينني؟

ـ أجل، قالت ونظراتها مثبتة في عينيه.

ـ لم يرق لها هذا الأمر، أليس كذلك؟ منذ لقائنا في حفل الشاي وأنا قلق بشأنها: كأنها تمقت حتّى أن تنظر إليّ.

كان كيكوجي يتكلّم بلهجة مبطّنة وبقصدٍ مُبهم، يختلط فيهما الأسى والهزء.

أجابته السيّدة أوتا ببساطة بالغة:

ـ أجل، أحسبُ أن لقاءها بك كان مؤلماً.

ـ لا بدّ أن أبي كان سبباً في قسطٍ كبير من كدرها، قال كيكوجي، ويقصد بما لم يقله: كما كنتِ، أنتِ نفسك، سبباً لما قاساه الطفلُ الذي كنته.

ـ أوه! لا، ليس الأمر كما تظنّ، قالت السيّدة أوتا بلهجة استنكار. فوالدك كان يحبّ فوميكو كثيراً. وهذا بالضبط ما كنت أودّ أن أشرحه لك ذات يوم: هذا ما كنت أرغبُ في أن أحدثك به. في البداية، كانت الصغيرة تبدي بعض العناد إزاءه في الوقت الذي كان يبدي لها فيه كلّ مشاعر الحنان. ثمّ، قبيل نهاية الحرب، عندما اشتدّ قصف الطائرات، تبدّلت كلياً وبصورة مفاجئة ولم تعد تبدي

سوى رغبة وحيدة: أن تنذر لـه نفسها. أن تنـذر نفسها، قـد تكون عبـارة لا تخلو من غلوّ ـ لأنّها لم تكن آنـذاك سوى فتـاة صغيرة ـ سـوى أنّها كانت لتـذهب إلى أقـاصي الأرض، مثـلاً، لتعثر لـه على دجـاجة أو حفنـة أسـماك، أو تـذهب أثنـاء تسـاقط القنابل، دون أي إحسـاس بالخـطر، لتحضر له بعض الأرزّ. حتى والـدك كان لا يخفي دهشته لمثل هذا التبدّل المفاجىء وكان قلبي يتفطّر حين أرى ما يصنعه الحبُّ البنوي بطفلتي. وما كان هذا إلاّ ليضاعف عذابات الضمير لديّ.

هكذا إذن استطاع كيكـوجي أن يهتدي أخيـراً إلى مصدر الهـدايا المُـدهشة التي كان والده يحضرها معه إلى البيت في بعض الأحيان، وجلّها من تلك المواد الغذائية غير المتوفّرة ونادرة الوجود آنذاك، والتي أفاد منها جميع أفراد العائلة بلا استثناء!

ـ لم أفهم جيداً لماذا تبدّلت ابنتي فجأةً. ولكنّهـا قد تكـون فكّرت بخـطر الموت الذي كان يتهدّدنا كلّ يوم. ولا بدّ أنّها أشفقت لحالي. وما حدث بـالفعل هـو أنّها كرّست نفسها لخدمة والدك بملء إرادتها وبكلّ ما تمتلكه من قوّة.

قد يكون طابع المأساة في حرب تقترب من نهايتهـا الكارثيّـة قد محـا، بالفعـل، ذكـرى والدهـا الذي فقـدتـه، وجعلهـا تتشبّث أكـثر من أي وقت مضى بحضـور والدتها التي ما زالت على قيد الحياة كـأنّه آخـر ما تمتلكـه في هذه الـدنيا، وجعلهـا تدرك إلى أيّ حدّ بات حبّ والد كيكوجي ملاذها الأخير.

ـ هل لاحظت الخاتم في إصبع فوميكو اليوم؟ سألت السيّدة أوتا.

ـ لا

ـ فلتعلم إذن أنّه هدية من والدك؟ أنت تعلم بـالطبـع أنّه كـان من عادتـه أن يعود إلى داره عند أوّل صفّارة إنذار، حتّى في حال وجوده عنـدنا. وعنـدها كـانت فوميكو تصرُّ على مرافقته متذرّعة بالأخـطار التي قد يتعـرّض لها في طـريقه. وذات يوم رافقته للسبب نفسه ولكنّها لم تعـد إلى البيت. «آمل أن تكـون وصلت برفقتـه إلى دارته، قلتُ في سرّي، فهناك تكـون في مأمن!» إلاّ أنني في الـوقت نفسه كنت أخشى أن يكونا قُتلا في الطريق. . . وفي صباح اليوم التـالي عادت. وأخـبرتني أنّها رافقت والدك حتى باب الدار: لقد استطاعا أن يصـلا إلى هناك، ولكن في طـريق

عـودتها اضـطرّت إلى الاختباء في أحـد الملاجىء حيث قضت ليلتهـا. وحين عـاد والدك لزيارتنا بعد هذه الحادثة أعـطاها الخـاتم وقال لهـا: «مع كـل امتناني لأجـل مساء أمس يا فومي شان!». لذا أفهم جيداً أن تشعر بالخجـل أمامـك وهي تضع هذا الخاتم.

شعـر كيكوجي بـالاشمئزاز لسـماعه كـلامها. وكم بـدت له السيّـدة أوتا مثـيرة للضحـك إذ تحسب، كما بـدا له أنّها تحسب، أن هـذه الحكايـة لا بدّ أن تنـال من عواطفه، هو كيكوجي بـالذات! وبـرغم ذلك، فـما يدعـو للعجب فعلاً هـو أنّه لم يشعر إزاءها بأية كراهية ولا حتّى الشعور بالحـذر. فقد كـان حضورهـا يُشيع دفئـاً ناعماً، لا يعرفُ ما هو بالضبط، لكنّه الدفـء الذي يجعله بلا حيلة أمامها.

فـأن تكرّس الفتـاة نفسها بهـذه الطريقـة حتّى التضحية، أمـرٌ لا بـدّ أن يكـون الدافع إليه ضيقها بأن ترى أمّها متروكة لأحزانها. أمّا السيّدة أوتـا، فهي إذ تقصد الكـلام على ابنتهـا إنّما تـروي وبوضـوحٍ لا شائبـة فيه قصّتهـا هي، قصّـة حبّهـا الكبير. أجل، ما اعترفت به لتوّهـا ليس سوى قصّـة حبّها. ولكنْ لِمن؟ لمن تفتـح قلبهـا، إذن، وتبوح بـأسراره؟ وأدرك كيكوجي أنّها لا تقيم الفـرق بـوضـوح بـين الابن والأب. وكأنّها في دفق الحنان الذي تغمر به كيكوجي تلقائيّاً إنّما تكشف عن مكنون قلبها حيال والده.

أمّا الحقد الذي كان كيكوجي ووالدته يبديانه إزاء السيّـدة أوتا فقـد خبت حُمّاه وإنْ لم ينطفىء جمرُهُ حتى النهاية. وذهب كيكوجي إلى حدِّ الاعتراف لنفسه بأنّه إنْ لم يتمالك نفسه حذراً فقد يصلِ به الأمر مُـرغماً إلى أن يصغي لمـا تقولـه هذه المـرأة بعواطف أبيه الذي أحبّها كثيراً. ألم يسبق له أن استسلم لزهم علاقة حميمة ودائمة معها؟

بلى، استطاع عندئذ أن يُحسّ في أعماقه لماذا حرص والـده، وهو الـذي لم يتردّد في قطع علاقته بشيكاكو، على الارتباط بهذه المـرأة حتى موتـه. واستطاع أيضـاً أن يدرك مقدار الاحتقـار الذي تبـديه شيكـاكو نحـوها. ألم يشعـر فجأةً، هـو أيضاً، بأن قدرته على تعذيب هذه الفريسة القانعة، والتلذذ بإيلامها على هواه، أمْرٌ يغويه؟

ـ أغالباً ما تشاركين في مجالس كوريموتو؟ سألها بنبرةٍ مُباغتة، على الرغم من أنّها لم تتردّد، فيما مضى، في التسبّب بقسط وافر من متاعبك!

ـ أجل. . . هي التي راسلتني بعد وفاة والدك، قالت السيّدة أوتا مُطرقةً. كنت أشعر أنني وحيدة. . . ولا أستطيع أن أقاوم كلّ ما يمتّ إلى ذكراه بصلة.

ـ ولكنْ ابنتك، أترافقك دائماً إلى هذه المجالس؟ قال كيكوجي بجفاء.

ـ أوه! فوميكو لا ترافقني إلاّ مرغمة.

كانا لا يزالان يمشيان، عبر السفح المنحدر، وجاوزا المحطّة. تابعا طريقهما قدُماً سائِرَيْن باتجاه الهضبة في الجهة المقابلة لمعبد انغاكوجي.

IV

كـانت السيّدة أوتـا، على الأرجـح، قد بلغت الخـامسـة والأربعـين، أي تكـبر كيكوجي بعشرين عاماً على الأقلّ. إلاّ أنّها استطاعت أن تنسيه فارق السنّ بينهـما، حتّى خُيّل إليه فعلاً أنّه يُعانق امرأة تصغره سنّاً.

فاللذة التي خَبر مذاقها للتوّ كانت من تلك المباهج التي لا توفرها عادة إلاّ خـبرة الشريك في الفراش. ومع ذلك لم يشعر الشاب ولو للحظة بما قد تسبّبه قلّة تجربتـه الخاصة من حـرج. وتولّـد لديـه انطبـاع بأنّـه أصبح يعـرف، للمرّة الأولى، كيف تكـون المرأة بعـد أن عرف منـذ وقت طـويـل مـاذا يعني أن يكـون رجـلاً. وكـان كيكوجي لا يُخفي رعشته إزاء هذا الاكتشاف وإزاء تفتّح رجولته الكامل.

فهـو لم يخـطر لـه في السـابق أنّ للمـرأة مثـل هـذه القـابليـة الليّنـة والعميقـة لـلاحتضان، والقـدرة عـلى أن تـدلّـك فيـما هي تتبعـك: هـذه الانفعـاليـة الشهـويـة الفاعلة والدافئة والتي تغرقك في بحرٍ من العطور. وهو الذي لم يسبق له أن أحسّ بغـير التقزّز بعـد قضاء رغبتـه كلّما أتيحت له فـرصة العثـور على امـرأة في حيـاتـه كعازب، كانت تتملكه الرعشة حينذاك لشعوره بأنّه، على العكس من ذلك، يعومُ في ملذّاتِ خَدَرٍ شهيٍّ وهانىء. ويعلم أنّه مع امـرأة أخرى كـان ليسارع لـلابتعاد ببرودٍ عنها ولإبعادها عنـه، بينما يُحسّ هنـا، وللمرّة الأولى، بـأنّ جسده يـرغبُ في تنسُّمِ الدفـءِ الناعمِ للجسد الآخر الذي يحتضنه برقّةٍ، لإطالة أمـد العناق إلى مـا لا نهايـة. لا، لم يُتح لـه من قبل أن يجـد لدى امـرأة أخرى مثـل هذه التمـوّجات المداعبة لشعور لا ينضب. وكانت حـواسّه النشـوى تستكين إليهـا مبتهجةً فيـما هو يُمتّع أعماقه بظفر الغازي، الفاتحِ الـذي يغسلُ الأرقّـاءُ قدميـه. وفي الوقت نفسـه ينتابه أيضاً إحساس الطفل الذي يحلمُ والذي يلوذ بدفـءِ ذراعيّ أمّه.

فجأة، قال كيكوجي وهو يرفع جذعه مُحرِّراً كتفيه من ذراعيها المعانقتين:

ـ أوَتدرين أن كوريموتو تحمل وسوماً كبيرة منذ الولادة؟

إلّا أنّه برغم وعيه التام لخبث كلامه لم ينتبه في استرخائه إلى أنّـه يُسيءُ كثيراً إلى شيكاكو.

ـ إنها هنا، على هذا النحو، وتصل حتّى الثّدي.

ومدّ كيكوجي يده ليشير إلى الموضع الذي يقصده.

كان ينقاد إلى ميل غريب وعلى قدرٍ من التشـوّش، دون أن يدرك تمـاماً من أين تـأتيه تلك الـرغبة المفـاجئة، وذلـك التلهّف الشرِه لأن يخون ذاتـه والتلذّذ بـإيـلام الآخرين. أو ربّما لم يكن ذلك سوى طريقة يتبعهـا بدافـع الحياء الـذي يُربـكُ من هم في سنّه لإخفاء الفضول الذي يُبديه إزاء هذا الجسد الأنثوي؟

ـ أوه! دعنـا من هذا، إنّـه أمر مقـزّز! قالت وهي تشـدُّ طرفي الكيمـونـو عـلى صدرها بحركةٍ تلقائية، وكأنها لا تدرك مغزى الكلام. وأضافت قائلة: «إنها المـرّة الأولى التي أسمع فيها مثل هذا الكـلام. وبأيـة حال لا يمكن أن تُـرى البقع تحت الكيمونو».

ـ لا، طبعاً، ولكن مع ذلك. . .

ـ ولكنْ ماذا؟

ـ هنـاك أوقات لا بـدّ أن تظهـر فيها حتـماً: إنها على هـذا النحو، هنـا في هذا الموضع. هنا.

ـ أوه! يا لك من فتى دنيء. . . وهـل تسعى لمعرفـة ما إذا كنتُ أحمـل وسومـاً مماثلة؟

ـ لا أبداً، صدقيني!. . . إنّمـا أسأل نفسي عـمّا عساك تفعلين لـو كنت تحملين بقعاً في الموضع نفسه، أقصد كيف يكون أثرها عليك في مثل هذا الموقف بالذات.

ـ أين هي تلك الوسوم؟ هنا؟ (ونظرت نحو صدرها بهدوء). ثمّ سألته ببساطة

بالغة: لماذا تسأل؟ وما الفائدة التي تجنيها لو عرفت؟

كان كيكوجي عاجزاً عن الإجابة. لقد أراد أن يَنفث فيها سمّه ولكنّه لم يُفلح وها إن السمّ يُردّ إليه ويعتمل في داخله من جديد.

- بالعكس، الفائدة عظيمة! ففي المرّة الوحيدة التي رأيت فيها هذه الوسوم كنت لا أزال في الثامنة أو التاسعة من عمري. ومنذ ذلك الحين وهي لا تزال تؤرقني.

- ولكن لماذا؟

- وأنت نفسك، . ألم تعاني منها مباشرة؟ قال كيكوجي بإصرار. ألا تذكرين يوم جاءتك كوريموتو وادّعت أنها قادمة من قِبَل أمّي ومن قِبلي أنا، بكل نميمتها ولومها المقذع. . .

أطرقت أنْ بلى. وبدرت منها حركة خفيفة إذ حاولت أن تبتعد عنه، إلاّ أنّ ذراعي كيكوجي عاجلتا إلى احتضانها بقوة.

- لذا، لا شيء يقنعني الآن بأنّ سبب هذا اللؤم الذي كان يعتمل في داخلها حينذاك ليس تعبيراً عن قنوطها وغضبها إزاء البقع التي تغطي ثديها: أو العقدة النفسية التي سببتها لها.

- ولكنّه شيءٌ فظيع، هذا الذي تقوله الآن!

- وجائزٌ أيضاً أن تكون سعت للانتقام من والدي!

- ولماذا تنتقم منه؟

- عقدتها. . . البقع. . . فهي، بطريقة أو بأخرى، السبب في تخلّيه عنها. الأمر الذي كان يُضاعف أساها وإحساسها بالمرارة.

- أوه! كفى. لنكفّ عن ذكر هذه البقع الفظيعة. فأنا أشعر بالغثيان. . .

تشعر بالغثيان، قال كيكوجي في سرّه، برغم أنّها لا تملك أدنى فكرة عمّا يمكن أن تكونه هذه البقع!

ـ لا بدّ أن هذا الأمر لم يعد يَؤرّق الآنسة كوريموتو. وهي على الأرجح كفّت عن التفكير فيه. إنها أشياء يُمكن أن تُنسى. . .

ـ أتعتقدين فعلاً أنّ مثل هذه الأمور، حين تنقضي، لا تترك أثراً؟

أطرقت السيّدة أوتا متأملةً.

ـ يحدث أن يكون الماضي كذكرى موضع إعزاز أكبر، قالت حالمةً.

وفي تلك اللحظة أسرّ كيكوجي باعترافه الذي كان صمّم بإصرار على كتمانه.

ـ تلك الفتاة التي كانت جالسةً بجوارك خلال حفل الشاي، أتعرفينها؟

ـ يوكيكو؟ طبعاً أعرفها. . . إنّها ابنة السيّد إينامورا، أليس كذلك؟

ـ لقد تعمّدت كوريموتو دعوتي لتعرّفني بها.

ـ أوه!

أصبحت عينا السيّدة أوتا أكثر اتساعاً، ورمقت كيكوجي مقطّبةً.

ـ لقد كان إذن حفل التعرّف إلى خطيبة؟ وأنا التي لم ألاحظ شيئاً من هذا!

ـ لا، لا! صرخ كيكوجي مُعترضاً. ليست مسألة زواج، أؤكّد لك. لا شيء من هذا القبيل.

ـ أوه! بلى! . . . وأنا التي ما أن غادرتُ حتى. . .

ورأى كيكوجي أنّها تغصُّ بالبكاء، ثمّ راح النحيبُ يرجّ كتفيها فيما قطرات كبيرة من الدموع تسيل على الوسادة.

ـ لن أغفر لنفسي! لن أغفر لنفسي! . . . لماذا لم تخبرني إذن؟

ورآها تخفي وجهها في الوسادة فيما يتواصل نحيبها ولم يكن يعرف سبباً لما تفعله. وقال:

ـ إذا كان هناك أيّ سوء في ما فعلناه، فلن تبدّل هذه الشكليات الصغيرة التي تتحدثين عنها من الأمر شيئاً. فلا أهميّة على الاطلاق لأن نكون فعلنا ما فعلناه بعد

خروجنا من هناك مباشرة أم لا. ما من صلةٍ، ولو بعيدة، بين الأمرين.

كان كيكوجي يتكلّم بقناعة تامّة. ويقول فعلاً ما يفكّر فيه. ولكن في تلك اللحظة بالذات خطرت له أيضاً صورة الآنسة إينامورا وهي تُعدُّ الشاي وفق الأصول التقليدية لهذا الفن، ورأى نقوش الطيور البيضاء. فبدرت منه علامة كراهية لجسد المرأة التي كانت تنتحب بجانبه.

– يا لي من بائسة، واحسرتاه! ما الذي اقترفته؟ يا لي من آثمة، امرأة شؤم! كانت تردّد في نحيبها المتواصل وشهيقها يرجّ كتفيها المدوّرتين.

كان كيكوجي أقرّ لنفسه طوعاً بأنّ في هذه المغامرة ما يُعيب لو أنه استطاع فقط أن يشعر ولو بوخزة ندم. فبرغم كلّ شيء، وإذا أغفل حقيقة لقائه الأوّل بالآنسة إينامورا، فإنّ المرأة التي يُعانقها الآن في السرير هي نفسها عشيقة والده!

ومع ذلك، لا: فحتى اللحظة لم يخطر له، ولو لثانية واحدة، أنّه أساء التصرّف. ولم يشعر بالندم ولا بتبكيت الضمير. ولكن هل كان مُذنباً حقاً؟

حتّى أنّه لم يكن يذكر جيّداً كيف انتهى بهما الأمر، هو والمرأة، إلى هذ الحدّ. من المؤكّد أن الأمور جرت من تلقائها، بشكل طبيعي، مدفوعةً بقوة الأمور نفسها. . . ولكنْ إذا صحّ ما تقوله الآن، فهي نادمة، أشدّ الندم، لأنّها أغوته. أتكون أغوته فعلاً؟ أوه! لا، إنّ كيكوجي واثق من ذلك: فهي لم تكن في وارد الإغواء على الاطلاق، بل ولم تدرك للحظة واحدة أنها تفعل، وهو نفسه كان يعرف جيّداً أنّه لم يشعر، بل لم يراوده أدنى شك إن ما يفعله إنّما هو استسلام لإغوائها. فهما لم يفعلا سوى الانصياع لميلهما، أحدهما كما الآخر، دون أن ينظرا إلى الجانب الأخلاقي من المسألة، ودون أن يفكّرا فيه: ولم يجدا، سواء له أم لها، أيّ عائق، ولم يبديا أيّة مقاومة لا من جانبه ولا من جانبها. وما حدث بالفعل أنّ الحكم الأخلاقي لم يكن وارداً في موقفهما.

كانا إذن قد وصلا إلى سفح الهضبة المقابلة لمعبد إنغاكوجي، وهناك دخلا إلى أحد النزل لتناول طعام العشاء. حدث ذلك لأنّ الحديث، أو الأحرى، اعترافات السيّدة أوتا المتعلّقة بوالد كيكوجي ليس لها نهاية. طبعاً لم يكن هناك ما يُرغم

كيكوجي على سماعها بل، على العكس من ذلك، حتّى أنّه كان يجد بعض التفاهة في موقف الضعف الذي يبديه حيالها. وفي المقابل، كانت السيّدة أوتا، المستغرقة في حديثها وكلّها تأثر وانفعال، تتكلم وتتكلّم بلا حساب دون أن ترتاب، ولو من بعيد، باهتمام محدّثها بما تقوله. وكيكوجي الذي تحوّل صبرُه، دون قصدٍ منه، إلى رقّةٍ مفاجئة، لم يُصغِ إليها في البداية إلّا مدفوعاً بشعور غامض من العطف، ولكن، لم يلبثْ، أن استسلم، شيئاً فشيئاً لحرارة ورقّة الصلة الحميمة التي جعلتها بينهما. وسرعان ما أراد أن يستسلم لها حتى النهاية، ويستغرق فيها ويرقد في كنفها. حتّى أنّه فكّر بمقدار السعادة التي كان ينعم بها والده بقربها.

بلى، فإذا كان لا بدّ أن يعثر على ما يلوم نفسه عليه، فلن يجد سوى هذا الشعور. ولكنْ إذ فوّت عليه الفرصة التي سنحت له للتنكر لهذا الشعور والابتعاد عنه، فهل بقي له إلّا أن يستسلم أكثر فأكثر لأهواء قلبه اللذيذة؟

وإذا راح يحدّثها فجأةً، كما فعل منذ قليل، ودون قصد منه، عن شيكاكو والسيّدة إينامورا، فمما لا شكّ فيه أنّه إنما يفعل مدفوعاً بوطأة هذا الشعور الغامض، بهذا الجانب المظلم الذي لا يزال راكداً في أعماق قلبه. لقد أراد أن يبصق السمّ الذي ابتلعه، فما أحسن التخلّص من آثاره السيئة.

كان الثمن الذي يدفعه باهظاً بالفعل، بقلبه هذا، وقد بات موزَّعاً، كما لم يكن مِن قبل، بين أحاسيس الندم الطارئة التي تهزّه بعنف، وبات، هو نفسه، شديد الخجل من نفسه وغاضباً منها حتّى لم تعد تراوده سوى الرغبة الشرسة العمياء في أن يسعى للتجريح بها بكلامٍ أشدّ فأشدّ قسوة.

- لنحاول إذن أن ننسى كلّ شيء، قالت مترددة. كأنّ شيئاً لم يحدث بالفعل.

ثمّ أردفت بعد لحظة كأنها تقول همساً:

«لا شيء على الاطلاق. لا شيء».

- بالطبع لم يحدث شيء، غمغم كيكوجي. فأنت لم تفعلي أكثر من إحياء ذكرى والدي لبعض الوقت! ولا شيء آخر، فقط هذا!

- أوه!

ولدهشتها نهضت قليلاً ورفعت وجهها عن الوسادة: وجه شاحب تـورّد جفناه لشدّة البكاء حتّى بدا بياض العينين معتكراً قليلاً. إلاّ أن كيكوجي استطاع أيضاً، حين نظر إلى عينيها، أن يرى فيهما وهنَ المرأة اللذيذ.

ـ ليس أنا مَن يدّعي عكس ذلك، للأسف! لستُ سوى امرأة مسكينة. . .

ـ لا تتفوّهي بحماقات! قال كيكوجي غاضباً وقد كشف عن ثـدييها بحـركة مفاجئة. لو كانت للكِ علامات في موضع ما من جسمك لكان يصعب على من يعرفك أنَ ينساك. . . ولكان الأمر مذهلاً!

كان هو نفسه مذهولاً لما يقوله.

ـ لا تنظر إليّ هكذا، أرجوك! فأنا ما عدتُ في عزّ شبابي. . .

قَلَبَ كيكوجي شفته السفلى وأقتربَ منها أكثر وهو يضحك هـازئاً. والتصق بها وقد هدأ فجأةً لشعوره بالخدر النـاعم، تهدهـده تمّورات عنـاقها السـابق العذبـة، الشهية وكأنها لا تزال تحتفظ بكامل دفئها.

وبعد أن استكان غضبه ونال منه الاسترخاء غرق في رقادٍ عميق.

وحين عاد، إلى هذا العالم الحائـر بين الحلم والحقيقة، أيقظته زقزقة العصافير. وبدا له أنّها المرّة الأولى في حياته التي يستيقظ فيها على زقزقة العصافير الصغيرة.

كان الندى الصباحيّ يجعل الخضرة في أوراق الشجـر لألاءةً، أما هـو فقد كـان يشعر بأنّ رأسَه ينعم بالصفاء كأنّه غُسِلَ بالندى. فلا أثر فيه للأفكار المشوّشة.

كانت السيّدة أوتا لا تزال نائمة وقد أولته ظهـرها. وسـأل كيكوجي نفسـه متى استدارت على هذا النحو؟ ومُتّكئاً على مـرفقه راح يتـأمل وجههـا المعرّض لبـوارق الفجر الأولى. وافترّت شفتاه عن طيفِ ابتسامة.

V

كان انقضى خمسة عشر يوماً على لقائهما في حفل الشاي الأخير في جناح معبد إنغاكوجي، عندما جاءت ابنة السيّدة أوتا لزيارة كيكوجي.

أدخلها كيكوجي إلى ردهة الاستقبال، ولكي يُهدّىء من خفقان قلبه هرع إلى الخزانة يفتحها بنفسه ويضع بعض قطع الحلوى في الصحن. أجاءت بمفردها أم أنّ والدتها تنتظر عند الباب لا تجرؤ على الدخول؟ كان كيكوجي يتساءل في سرّه دون أن يتيقن من الاجابة.

وحين عاد أخيراً إلى الردهة نهضت الفتاة لتبادره بالانحناء لتحيّته. ولاحظ شفتها السفلى البارزة قليلاً في فمها المزموم وهي تحني رأسها.

ـ أعذريني لأنني جعلتك تنتظرين، قال.

ومرّ من خلفها لكي يفتح الواجهة الزجاجيّة التي تطلّ على الحديقة. كانت أزهار الفوانيا في المزهريّة تشيع عطراً ناعماً. أطرقت الفتاة وقد حنت قليلاً كتفيها المدوّرتين حين أقترب منها.

ـ أتسمحين؟ . . .

وجلس كيكوجي دون أن ينتظر جواباً منها.

ـ لقد أذنتُ لنفسي بالمجيء لزيارتك دون علمٍ مسبق، بادرت إلى القول مطرقةً.

ـ بالعكس، هذا من دواعي سروري. ألم تجدي صعوبة في الاهتداء إلى العنوان؟

ـ لا.

وتـذكّر كيكـوجي فجأةً أنها سبق لهـا أن وصلت حتى بـاب داره عنـدمـا رافقت والده في طريق العودة تحت قصف القنابل كما أخبرته السيّـدة أوتا في حـديقة معبـد إنغاكوجي.

كـاد أن يقول لهـا هذا ولكنّـه تمالـك نفسه في اللحـظة الأخيرة. وراح يتـأمّلهـا بإمعان بينما مكثت هي مُطرقةً خافضةً عينيها.

أحسّ مجـدّداً بموجـة دفءٍ تغمره حـين عاودتـه صورة السيّـدة أوتا الـرقيقـة ولم يستـطع مقاومـة التفكير مجـدّداً باستسـلامه الكـلّي واللذيذ لعنـاقهـا. ومـا لبث أن استغرق في أفكاره مُطمئنّ الرّوع، ساهياً عن وجود الفتاة أمامه. وكانَ كأنّ تحفّـظه وحذره قد تبدّدا تماماً رغم أنه لم يستطع أن ينظر في عينيها المخفوضتين بعناد.

ـ لقد أذِنت لنفسي بالمجيء...

وفيما كانت تتفوّه بهذه الكلمات رفعت رأسها ورمقته بنظراتٍ ثابته.

لقد أذِنت لنفسي بالمجيء... بشأن موضوع والدتي: لأسألك معروفاً.

حبس كيكوجي أنفاسه.

ـ أودّ أن أسألك الغفران لوالدتي.

ـ غفراني؟ ماذا تقصدين؟

لكنّه في الذهول الذي بـدا على وجهـه لم يلبث أن أيقـن أنّ أمّها أخـبرتها كـلّ شيء.

ـ إذا كـان ثمـة من ينبغي أن يسـأل الغفـران فهــو أنـا من دون شــك! قـال معترضاً.

ـ وأكون سعيدة لو تغفر لهـا أيضاً كـلّ ما يمتّ إلى والـدك بصلة، أردفت الفتاة قائلة.

ـ وبهذا الشأن أيضاً، الأحرى أن يُسألَ الغفران لوالدي. لقـد ماتت والـدتي، كما تعلمين.. فمن منّا الآن له ما يغفره للسيّدة والدتك؟

ـ لقد توفي والـدك في سنّ مبكرة جـداً! ولطالمـا سألت نفسي إذا كـانت الهموم التي سببتهـا لـه والـدتي هي السبب في ذلـك. ومـا سبّبتـه لـوالـدتـك أيضـاً من شجون. . . هذا ما قلته لوالدتي!

ـ أنت تنشغلين بوساوس لا طائل فيهـا. ومآخـذك على والدتكِ تبدو لي جـائرة بعض الشيء.

ـ أوه! لماذا لم تمت هي أوّلاً وقبل أن يموت والدك!

كانت الفتاة على حافة الإغماء لشدّة ما يُضنيها الكلامُ ويمسُّ عواطفها الخجولة.

وأدرك كيكوجي حين رأى أنها لا تتكلّم، في الحقيقة، إلاّ على صـلاتها الخـاصة بوالدتها، كم كان هذا الأمر مؤذياً وجارحاً لمشاعـر هذه الفتـاة، وكم كان يُشعـرها بالمهانة في أعماقها.

ـ أتوسّل إليك، إغفر لوالدتي! ردّدت قائلةً وكأنها تستجمع ما تبقى لها من قوة لتقولها.

ـ ليـس غفـراناً، بـل عربـون امتناني واحـترامي الشديـدين اللذين أدين بهـما لوالدتك، قال كيكوجي موضحاً وبنبرة حازمة.

ـ هي المـذنبـة، هي وكـلّ نقـائص طَبْعهـا. وأودُّ أن لا توليهـا بعـد الآن أيَّ اهتمام. أتوسّل إليك، كفَّ عن الاهتمام بأمر والدتي؟

كانت قد تكلمت بسرعة وبصوت متقـطع ومتهدّج. وأدرك كيكـوجي ما الـذي كـانت تقصده بسؤالهـا الغفران: دع والـدتي وشأنها! لا تـرَها بعـد الآن! هذا مـا كانت تقصده بقولها.

ـ وكذلك الأمر لا تسع للاتصال بها هاتفياً، أضافت الفتاة.

برغم الحمرة الملتهبة التي صبغت وجنتيها، رفعت رأسها كأنّها تتحـدّى حياءها المُجْفـل وثبتت نظرتهـا مباشـرةً في عيني كيكوجي. لكنّ عينيهـا الواسعتـين كـانتـا مليئتين بالدموع وفي نظرتها الخالية من أي أثر للعداوة، شيءٌ ما يُشبه التوسّل كـأنّه دعاء يائس.

ـ حسناً، فهمتْ، قال لها في النهاية. أرجو أن تقبلي اعتذاري.

ـ لا داعي، أرجوك! أسمح لنفسي بالاتكال عليك...

هـذه الكلمات الأخيرة جعلت وجه الفتاة المسكينة أشد احمراراً، حتّى أن كيكوجي رأى الحمرة تُلهبُ عنقها البضّ الطويل. ألكي تبرز جمال عنقها الطويل الرقيق ثبتت هذا المشبك الأبيض الصغير على ثنية ياقة التايور؟

ـ عندما اتصلت بها هاتفياً وافقت والدتي على موعدك، راحت الفتاة تشرح له عندئذٍ وبدت أقلّ تشنّجاً. وكانت مصممة على الذهاب بأيّ ثمن وأنا التي منعتها. لقد تمسّكتُ بها بكلّ ما لديّ من قوّة حين همّت بالخروج. ولهذا السبب مكثت تنتظرها عبثاً.

كان كيكوجي قد اتصل فعلاً بالسيّدة أوتا بواسطة الهاتف بعد مضيّ ثلاثة أيام على لقائهما. وخاطبته بصوتٍ لا شائبة في ابتهاجه، ولكنّها، في النهاية، لم تأت إلى المقهى حيث كان ينتظرها. ومنذ ذلك الاتصال الهاتفي لم يتلقّ إشارة منها.

ـ فيما بعد أشفقتُ لحالها. لكنْ في ذلك الوقت بدت لي مقيتةً فجبهتها باصرار، وبلا وعي مني حتى كنتُ أكاد، أنا نفسي، لا أعرف ماذا أفعل! ـ فوميكو، قالت، اذهبي أنت بنفسك للاتصال به وقولي له إنني له أحضر في موعده المحدّد! أرجوك، اتصلي به. فاقتربت من الهاتف ومكثت هناك، السمّاعة في يدي، وأنا عاجزة عن الكلام. كانت والدتي تنتحبُ وقد سالت الدموع على خدّيها ولا تحيد بنظرها عن السّماعة: كانت تراك أنت، يا سيّد ميتاني، وليس الهاتف. فهذا من طبعها، أقصد أمّي، كما تعلم.

عندها مكثا لوقت طويل دون أن يقولا شيئاً. وفي النهاية بادر كيكوجي إلى كسر صمتهما الذي طال:

ـ بعد أن غادرتما مجلس الشاي، سألها، لماذا سرتِ قُدُماً وابتعدت بينما مكثت والدتك هناك في انتظاري؟

ـ لأنني أردتُ أن تعرف أنها، في الحقيقة، ليست خبيثة كما قد تحسب.

ـ خبيثة، هي؟ بل هي، في الحقيقة، مُفرطة في الطيبة!

أغْضَت الفتاة، ومن جديد استطاع كيكوجي أن يُمعن النظر في وجهها: الأنف المستقيم الدقيق بلا شائبة، والفم والشفة السفلى البارزة قليلاً. كانت نعومة ملامحها تذكره بأمّها.

ـ لقد كنت أعلم منذ وقت طويل أنّ السيّدة والدتك لها ابنة، قال كيكوجي متابعاً. ولطالما وددت فعلاً أن أتحدّث معها عن أبي.

ومالت الفتاة برأسها قليلاً علامة قبول.

ـ إنّها فكرة راودتني أنا أيضاً.

ـ وفكّر كيكوجي، فقط لو لم يحدث شيء بيني وبين والدتها لاستطعت الآن أن أتحدّث معها صراحةً عن أبي! إلّا أنّه بعد تفكير طويل ـ أيبدو الأمر مُستغرباً إلى هذا الحدّ؟ ـ أدرك أنّ ما جرى له مع السيّدة أوتا هو بالذات ما منحه القدرة على أن يغفر لها، ومن أعماق قلبه، صلتها بوالده، وجعله قادراً على تفهُّم لواعج قلبيهما. فيا لهذه الأمور الغريبة.

كان كيكوجي غارقاً في تأمّلاته الصامتة عندما خطر للفتاة أنها ربّما أطالت مكوثها أكثر مما ينبغي، فنهضت على عجل. وخرج معها يرافقها بعض الطريق.

ـ آمل أن يُتاح لنا ذات يوم أن نتحدّث معاً عن والدي، قال كيكوجي. كما آمل أيضاً أن تحدّثيني عن والدتك. إنها امرأة جديرة بالاحترام!

لا شك أنّ كلامه هذا ينمّ عن شيءٍ من الأنانية. إلّا أنّه يعبّر تماماً عمّا يدور في خلده.

ـ بلى... ولكنْ ألن تعقد قرانك قريباً؟

ـ أنا؟

ـ أنت. لقد أخبرتني أمي. إنّها الآنسة إينامورا يوكيكو.

ـ لا، أبداً. على الاطلاق.

كانت الطريق تمتدُّ في انحدارٍ، مباشرةً بعد اجتياز بوابة الحديقة، وبها مُنحنى بعلوّ نصف القامة لا تُرى منه، إذا التفتّ، سوى رؤوس الأشجار في حديقة كيكوجي. وفيما هما يسيران كان كيكوجي يستعيد في مخيّلته صورة الفتاة ذات الطيور البيضاء التي ذكّرته بها زائرته. وعندما وصلا إلى المنعطف، توقفت وغادرت بعد أن استأذنته.

عاد كيكوجي أدراجه باتجاه باب الدار، فيما كانت الفتاة تبتعد سائرةً في انحدار الطريق.

الكتاب الثاني

شمس الغروب فوق الغابة

I

كان كيكوجي يهمّ بمغادرة المكتب حين تلقّى اتصالاً هاتفياً من شيكاكو.

ـ هل ستعود مباشرةً إلى المنزل هذا المساء؟

هذا ما كان سيفعله حقاً، إلاّ أنّه قطّب متوجّساً.

ـ الحقيقة أني. . .

ـ ولكنْ، بلى، بلى، هذا المساء. أرجوك عُد حالاً. من أجل والدك، أتفهمني؟ إنّه اليوم الذي اعتاد فيه دعوة أصدقائه إلى مجلس شاي. لقد تذكّرت هذا الأمر فجأة وكان ينبغي أن أفعل شيئاً بهذا الشأن.

لم يجب كيكوجي.

ـ لقد عمدت إلى تنظيف جناح الشاي الصغير. . ألو، هل تسمعني؟ . . . أجل، لقد نظّفت إذن التشاشيتسو ثمّ خطر لي أن أهيىء بعض الطعام.

ـ أين أنت إذن؟

ـ في منزلك طبعاً، أنا في منزلك. إغفر لي، كان ينبغي أن أستأذنك أوّلاً!

مكث كيكوجي مذهولاً لوقع المفاجأة.

ـ حين تذكرت هذه المناسبة لم أستطع أن أقف هكذا مكتوفة اليدين، أتفهم ما أقول؟ فقلتُ في سرّي إنّ تنظيف التشاشيتسو سيهدىء من روعي بلا ريب. أوه! أعرف جيداً: كان ينبغي أن أستأذنك أوّلاً! إلاّ أنني كنت واثقة من رفضك لو أنني فعلت.

صحيح أن الجناح الصغير وحجرة الشاي الملحقة به ظلاّ مغلقين منذ وفاة

والد كيكوجي. ولم يدخل إليهما أحد باستثناء والدته التي كانت، قبل وفاتها، تقصدهما أحياناً بحثاً عن لحظات من العزلة والصمت. كانت تطيل مكوثها هناك أحياناً ولكن دون أن تشعل ناراً في الموقد. كانت تطلب أن يؤتى لها بالماء الساخن في كوز من الصفيح. ولم يكن كيكوجي، بأية حال، ليرضى عن عزلة أمّه هناك حيث تجترّ ما لا يخطر في باله من الأفكار السوداء أياها. ولشدّة قلقه كان يهمّ مراراً باللحاق بها ولكنّه لم يجرؤ على ذلك ولو مرّة واحدة.

لا بدّ أن يُقال إنّ شيكاكو هي التي كانت تدبّر شؤون الجناح قبل وفاة والده. وكانت والدته لا تطأ إلاّ نادراً هذا المكان.

ومنذ وفاة والدته ظَلَّ التشاشيتسو مغلقاً، لا يدخل إليه سوى الخادمة العجوز مرّةً أو مرّتين كلّ عام لفتح النوافذ وتهويته. وكانت هذه المرأة تعمل في خدمتهم منذ وقت بعيد، قبل وفاة والده.

- منذ متى لم يعمد أحدكم إلى تنظيف الجناح؟ سألت شيكاكو بنبرةٍ وجدَ أنها تصبح أكثر فأكثر إزعاجاً. لقد حاولت غسل الحصر مرةً واثنتين وأكثر: وما زالت رائحة العفن عالقة فيها. غير معقول! وفي النهاية حين أصبح كلُّ شيء على أحسن حال راودتني الرغبة في أن أهيىء طعاماً وشرعتُ بذلك على الفور. هكذا، بطريقة مُرتجلة، ليس لدي كلّ ما يلزمني ولكن على الرغم من ذلك فعلت أفضل ما بوسعي. لذا أنا أنتظر قدومك حالاً.

- في الحقيقة لا أعرف ماذا أقول حيال كلّ هذا!

- ولكن إذا كنّا وحدنا، أنا وأنت، فلا بدّ أن يبدو الأمر كئيباً. فلماذا لا تدعو عدداً من أصدقاء المكتب؟

- لا فائدة من المحاولة: إذ لا أحد هنا يمارسُ فنّ الشاي.

- هذا الأمر ليس مهمّاً، بل على العكس، فمن الأفضل أن يكونوا من غير الهواة لأننا لن نُفلح في إنجاز التحضيرات اللازمة وحسب الأصول. دَعْهم يأتون للمشاركة وحسب.

ـ لا، أقول لك، لا فائدة من إصرارك، قال كيكوجي بنبرة حاسمة.

ـ أوه! حقّاً؟ إنّه لأمر مؤسف! إذن ماذا نفعل؟... حسناً! لماذا لا تدعو إذن بعض زملاء والدك من مزاولي فنّ الشاي؟ لا، لا يصحّ أن ندعوهم بهذه الطريقة. آه، وجدتها! ماذا لو دعونا الآنسة إينامورا وطلبنا منها أن تأتي؟

ـ لا بدّ أنّك تمازحينني؟ لن تفعلي هذا!

ـ لِمَ لا؟ فالأمر سيّان عندك ما دمت لن تدعوها بنفسك. وأُسرتها، كما تعلم، أمْيَل إلى الموافقة على الزواج. ثمّ هي فرصة لك لتلتقي الآنسة إينامورا مرّة ثانية، وتستطيعان خلالها أن تتصارحا بما في قلبيكما. فإذا اتصلتُ بها وأبدت استعداداً للمجيء فسيكون هذا بمثابة اعتراف من قِبَلِهَا وتكون واثقاً من موافقتها.

ـ لا أريد مثل هذه الألاعيب! قال كيكوجي مُمتعضاً. دَعِيْنا من كلِّ هذا! وإذا ألححتِ فلن أعودَ إلى المنزل اليوم.

ـ حسناً، حسناً! وبأيّة حال، لا يعقل أن نناقش هذا الأمر عبر الهاتف. لذلك يجدر بنا أن نؤجّل البحث فيه إلى وقت آخر. عُدْ إذن. بسرعة.

ـ في ما يعنيني لا وجود لهذا «الأمر»! ولا أريد أن أسمع شيئاً عنه.

ـ حسناً، كما تشاء. لن تسمع شيئاً عنه. سأتولّى المسألة بنفسي وسأفعل ما أراه صواباً، هذا كلّ شيء.

أيّ سمّ زعاف، هذه المرأة! تطفّلها! إزعاجها! وهذه الأحابيل التي تستخدمها للسيطرة عليك! لم يرضخ كيكوجي الساخط، لوطأة السطوة التي تمارسها هذه المرأة عليه إلّا بنفورٍ واشمئزاز. ورأى مرّةً أخرى البقع الدميمة التي تغطي الجهة اليُسرى من نحرها. وسمع، كما لو أنّه يُدوّي في رأسه، صوت مكنستها الصاخبة وهي تكنس جناح الشاي. وأحسّ بالفوطة المبلّلة التي استخدمتها لمسح الأرضيّات الخارجية وكأنها تُعتَصرُ في دماغه.

وبالإضافة إلى صُورِ التقزُّر العنيفة هذه، كان كيكوجي يشعرُ بالغيظ أيضاً، كمن يشهد تصرّفاً غير لائقٍ، سخيفاً وبشعاً في وقتٍ معاً، لأنَّ شيكاكو أذِنت

لنفسها أن تتصرّف على سجيّتها فتدخل إلى داره في غيابه بل وتصل بها الوقاحة إلى حدّ صُنع الطعام فيه!

فلو أنّها اكتفت بتوضيب التشاشيتسو وتزيينه بالورود احتفاءً بذكرى الفقيد الراحل، لما استوقفه الأمر. . .

في غمرة تخبّطه هذا بمشاعر مقيتة مماثلة، تراءت له صورة الآنسة إينامورا فجأة كأنّها وميض برق.

أيُعقل أن تكون شيكاكو هذه التي أبعدها موت والده عنه قد صمّمت على التقرّب منه والإيقاع به في شباكها بواسطة هذه الفتاة؟

لذا فإنّ اتصالها الهاتفي الوقح والمضحك في وقتٍ معاً، والذي يتلاءم وسلوك هذه المرأة الغريبة الأطوار، لم يفاجىء كيكوجي وحسب بل وأثار قلقه أيضاً. فقد وجد في لهجة شيكاكو، في طريقتها التهكميّة للتلاعب بمشاعره، وانتزاع ضحكته المريرة عمداً، واللامبالاة إزاء ما يُحسّ به، نوعاً من الخطر المحدق به. ولكن ألا يُعقل، في آخر الأمر، أن يكون ضعفه الشخصي هو السبب في كلّ ما يحدث له؟ إنّ شكّه هذا هو الذي حالَ دون أن يعبّر كيكوجي، وبوعيٍ تامّ، عن ثورة غضبه إزاء هذا الاتصال الهاتفي الوقح. وإذا كانت شيكاكو تستغلّ سيطرتها عليه دون مراعاة أو حذر، أفلا يُعقل أن تكون لديها الأسباب الوجيهة التي تجعلها مطمئنةً إلى كونها الأقوى في علاقتهما؟

كان كيكوجي مستغرقاً في أفكاره هذه حين غادر المكتب ودخل إلى «جينزا» ليلوذ بالجوّ المغلق والخانق الذي توفره مثل هذه الحانات الضيّقة. فما عاد باستطاعته إلاّ أن يعود إلى داره كما طلبت منه شيكاكو سواء رغب في ذلك أم لم يرغب. غير أنه كان يشعر بانقباض.

أيُعقل أن تكون شيكاكو قد علمت بلقائه السيدة أوتا بعد أن غادرا حفل الشاي؟ وتراها تعلم بما جرى بينهما في نزل كيتا كاماكورا الصغير. هناك احتمال ضئيل. . . إلاّ إذا كانت الإمرأتان قد التقيتا مجدّداً منذ ذلك الحين! وتلك النبرة الواثقة التي كلّمته بها عبر الهاتف، أينبغي ألاّ يرى فيها سوى فقدانها لحسّ اللياقة

على جاري عـادتها؟ أيُعقَـل هذا؟ أو لعلَّه لا يجـد فيها سـوى محاولـة منها لتسريـع الخاتمة السعيدة لألاعيبها، وطريقة خاصة بها لتحقيق أغراضهـا بشأن قصـة الآنسة إينامورا؟

وعنـدما أحسّ كيكـوجي أنّه أصبـح عاجـزاً عن المكوث لمـدّة أطـول في المقهى الضيق، خرج مُسرعاً ومشى باتجاه المحطّة، واستقلّ القطار عائداً إلى داره.

وفيما كان جالساً في المقطورة المزدحمة قُرب النافذة لفَتَه، بين يـوراكوشـو، ومحطّة طوكيو الكبرى، منظرُ جادّةٍ مُحاطةٍ بالأشجار على جانبيها.

إنّها جادّة عريضة تمتدُّ من الشرق إلى الغرب وتتوهّـجُ بأشعـة شمسِ الغروب. كـان هذا الشريط الـطويل يلمـعُ تحت الأنوار كفـولاذ مصقول، وتبـدو الأشجـار الباسقة على جانبيه، إذ تُرى بعكسِ الضوء، وكأنها تميل إلى خضرة شديدة القتامة وغريبة. وعلى الأرض كانت ظـلالها التي تسـترعي انتباه النـاظر إليهـا كأنها ينـابيع طـراوة. أشجار جميلة جـداً، كثيفـة الأوراق تَفْرُدُ أغصانها المتينـة بخيـلاء. وهنـا وهناك، أبعد قليلاً، تبدو واجهات المنازل الراسخة ذات الهندسة الغربية.

والغريب أنّ الجادّة التي تتكشّف للعيان على امتدادها كـانت، حينذاك، مقفـرةً تماماً، وكأنها ترسمُ خطّاً من الصمت والسكون، خـطّاً من الضوء الخـالص وصولاً إلى أسـوار القصر الامبراطـوري، في خلفية المنـظر، حيث تُفضي. أيُّ تضادٍ ملفت بين سير القطار المزدحم والسكون الجليل لهذا الرواق الفسيـح المتعامـد وخطّ سكّة الحديد، والـذي بدا وكـأنّه يـوغلُ وحيـداً في صمت مذهـل، في أوقات الغـروب الـرحب، لكي يصبّ، كما في قصص الخـرافة، في منـظر الغروب نفسـه! لوهلةٍ تراءى لكيكوجي أنّه يرى بوضوح خيال الآنسة إينـامورا الـرقيق، وبيدهـا المنديـل الموشّى بالطيور البيضـاء، تسيرُ تحت الـظلال الطريّـة للأشجـار الوارفـة، الوديعـة والنديّة. بلى، كان يراها جيّـداً، ويرى أدقّ تفـاصيل النقش ذي الـطيور البيضـاء التي تزيّن منديلها الزهريّ الحرير!

راح قلبُه يخفق بقوّة لمـا رآه وتبدّل قنـوطه إلى مـزاجٍ رائق. من يدري، فقـد تكون وصلت الآن إلى داره؟

عاود التفكير بشيكاكو وبما عساها تُضمر لـه في أعماقهـا. فهي اقترحت عليـه في البداية أن يأتي برفقة أصدقاء ولم تقترح عليه دعوة الفتـاة إلّا بعد رفضـه لاقتراحهـا الأوّل. هل كان الأمـر مجرّد حيلة؟ وهـل كانت مصمّمـة، منذ البـداية، على دعوة الآنسة إينامورا؟ كان حائراً لا يهتدي إلى يقين.

ما أن وصل إلى الدار، وفيما كان يهمّ باجتياز العتبة بدت شيكاكو عند المدخل.

ـ أتيت بمفردك؟

أجاب كيكوجي بحركةٍ من رأسه.

ـ لحسن الحظ أنّك لم تحضر أحداً معك. إنّها هنا!

وإذ اقتربت منه لتأخذ منه قبّعته وحقيبته، سألت:

ـ لم تَعُدْ مباشرةً إلى البيت، أليس كذلك؟

تساءل كيكوجي إذا كـانت رائحة أنفـاسه هي التي تفضحـه أو إذا كان احمـرار خـدّيه هو الذي أفشى سرّ الكؤوس التي احتساها.

ـ ماذا فعلت إذن وإلى أين ذهبت؟ لقد اتصلت بك مرّة ثانية في المكتب وقيـل لي إنك غادرت. ولو أنّك تـوجّهت مباشـرةً إلى البيت لما تـأخّرت بـالوصـول حتّى الآن.

ـ لقد طفح الكيل!

مرّة أخرى تربكه صفاقة شيكاكو ويمكث غير قادر عـلى الإجابـة. ما الأمـر؟ ألا يكفي أنها تـدخل إلى بيتـه وتفعل فيه ما يحلو لها دون أن تفكّـر حتّى بـالاستئـذان، والأدهى،مآخذها عليه التي لا تتوانى عن الافصاح عنها! دخل كيكوجي إلى غرفتـه دون أن يتفوّه بكلمة. وسارعت شيكاكو إلى اللحاق به. كان الـرداء اليابـاني الذي هيّأته له الخادمة في انتظاره. أرادت شيكاكو أن تساعده في تبديل ملابسه.

ـ لا، أرجـوك، لا عليك. فـأنا لا أريـد أن استغلّ لُطفكِ إلى هـذا الحـدّ، والحقيقـة، ليس في نيّتي أن أنتهك أبسط قـواعد التهـذيب واللياقـة، أو أن اتنكّـر

لأبسط أصول الضيافة! سأبدّل ملابسي في مكانٍ آخر.

وبعد أن خلع سترته هرع كيكوجي إلى فناء المدخل كأنّه يسعى لمنعها من أي محاولة للّحاق به.

ثمّ عاد إلى غرفته مرتدياً الملابس اليابانية فيما مكثت شيكاكو تنتظره، وما أن رأته حتى خاطبته قائلة:

ـ هؤلاء العازبون يتدبّرون أمورهم على أكمل وجه، برغم الصعوبات!

ـ أحقّاً ما تقولين؟

ـ أجل. إلّا أنّ هذه الحياة مليئة بالنواقص وآملُ ألّا تُطيل أمدَها أكثر ممّا ينبغي.

ـ وكيف أفعل! بعد كلّ الذي رأيته برفقة أبي!...

رمقته بنظرة خاطفة. ولاحظ كيكوجي أنها ارتدت مئزراً كان لوالدته ولا بدَّ أنّ الخادمة أعطتها إيّاه قبل أن يصل. كانت شمرت كمّيها وفوجىء لرؤية ساعديها المشدودين البضّين، شديدَي البياض حتّى، برزت فيهما ألياف العضل الصلب الظاهرة.

وبلهجة متواطئة قالت شيكاكو:

ـ لقد استقبلتها مؤقتاً في الصالة. ولكن ألا يكون من الأفضل أن نستقبلها في جناح الشاي؟

ـ لا أعلم إذا كانت الإضاءة لا تزال صالحة هناك. فأنا لا أذكر أنني رأيتها مضاءة من قبل.

ـ بإمكاننا أن نقيم عشاءً في ضوء الشموع، بل لعلّه يكون أفضل.

ـ أوه! هيّا! هذا لا يجوز.

ـ آه! كدتُ أنسى، قالت شيكاكو فجأةً مُتطرّقةً إلى موضوع آخر كأنّها تذكّرت أمراً ما لتوّها: لقد أرادت الآنسة إينامورا حين اتصلت بها، أن تعرف إذا كانت

والدتها مدعوّة أيضاً. فأجبتها بأن هذا مما يضاعف سرورنا. ولكن للأسف، كانت السيّدة إينامورا غير متفرّغة لهذا المساء وقرّرنا، في النهاية، أن تأتي الآنسة إينامورا بمفردها.

- قرّرنا؟ تقصدين أنّك، أنت، قرّرت كلّ شيء، وعلى ما يحلو لك، وأنّك أجبرتها، لا يعقل أن يخطر لأيٍّ كان دعوة الناس بهذه الطريقة وفي اللحظة الأخيرة! إنّه تصرّف عديم اللياقة! ومن يدري الآن ما يدور في ظنّها بشأننا.

- بلى، بلى، أحسبُ، بلا ريب، أنني تجاوزت أصول اللياقات. ولكن لمجرّد أنّ الآنسة قد جاءت وأنّها هنا فهذا يعني إذن أن ما فعلناه ليس خطأً.

- كيف هذا؟

- الأمر في غاية الوضوح! بما أنّها جاءت اليوم فهذا يعني أنّها توافق طوعاً على فكرة الزواج. أنا لا أقول بالطبع إن كلّ هذا قد تمّ حَسَب الأصول التقليديّة، ولكنْ في النهاية أنا لا أرى الإساءة في كل هذا؟ فبعد أن يتمّ لكما ما اردتما، تستطيعان دائماً أن تتنادرا على أساليبي «غير المألوفة»! ولكنْ، صدّقني، ليس مهمّاً كيف تتمّ الأمور: فما ينبغي أن يحدث لا بدَّ دائماً أن يحدث. أو على الأقلّ هذا ما خبرته من تجربتي الخاصة.

اكتست نبرتها ثقة مفرطة في الوقاحة، وكأنّها خمّنت كلّ الأفكار التي تراود كيكوجي.

- ألأنّك أخبرتها بكل شيء؟

- طبعاً! هي تعلم.

كانت تقول هذا وقد بدا على وجهها ما أضمرته من كلام: إذن، حاول أخيراً أن تستقرّ على رأي!

نهض كيكوجي واجتاز الرواق في طريقه إلى الصالة. تريّث بعض الوقت قبالة شجرة الرمان جاهداً في اتخاذ سحنة أفضل. فهل من اللائق أن يواجه الآنسة إينامورا بمثل هذا الوجه المقطّب؟

وبينما كان يَسـيرُ ساهياً تحت ظلال الشجـرة الداكنـة، مثلت أمام عينيـه صورة البُقع على نحر شيكاكو. هزّ كيكوجي رأسه بعنف. كـانت أشعة الغـروب الأخيرة مـا زالت تلتمع عـلى أحجار الحـديقة الصغـيرة التي يهتدي بهـا السائـر حتى ردهة الاستقبال بواجهتها المشرّعة على مصراعيها.

كانت الآنسة إينامورا في زاوية من الردهة الواسعة غير المضاءة جيّداً تبدو وكأنها بقعة مضاءة تشعّ بالأنوار. وعلى التوكونوما وضع إناءٌ فيه باقة من أزهار السوسن. ألعلّها علامة من علامات القدر؟ فقد كان الأوبي(*) الذي ترتديه يحمل نقوشاً مماثلة وكأنّها ترتدي زنّاراً عريضاً من زهر السوسن. أو لعلّها مجرّد مصادفة فالموسمُ موسم السوسن ولذلك فإنّ الملابس التي يتم اختيارها عموماً انسجامـاً مع روحيـة الموسم تحمل في الغالب نقوش أزهار السوسن إحتفاءً بمناخ أيّام الربيع الأخيرة.

إلاّ أنها لم تكن من أزهار السوسن الـبرّي، بـل بـاقة من سـوسن الغُدُر تـلائمُ زينة التوكونومـا. وكان واضحـاً من طريقـة تنسيقها عـالية ومستقيمـة في باقـة من الأوراق والأزهار، ومن نداوتها أيضاً، أن شيكاكو قد وضعتها هناك للتوّ.

(*) زنّار عريض يُشدّ فوق الزي الياباني التقليدي.

II

اليوم التالي كان يوم أحد، وكانت تمطر. في فترة ما بعد الظهر ذهب كيكوجي بمفرده إلى التشاشيتسو لتوضيب الأواني التي استُعمِلَت ليلة البارحة. كان يمني النفس في سرّه أن يستغرق مجدّداً في الجوّ الذي أشاعه حضور الفتاة وكأنّه لا يزال قادراً على تنسّم عطر الآنسة إينامورا.

وما أن أحضرت له الخادمة مظلّة وهمّ بعبور الممرّ الذي يفضي إلى عتبة جناح الشاي، متنقّلاً فوق الحجارة التي باتت كالجزر الصغيرة في وسط المياه، إنتبه إلى سيل المياه الذي يتدفّق غزيراً أمام شجرة الرّمان. وحين رفع عينيه نحوها لاحظ الثقب الكبير في الميزاب.

ـ ينبغي أن نعمل على إصلاح هذا، قال للخادمة.

ـ هذا ما كنت أودّ قوله أنا أيضاً، يا سيدي.

كان صوت تدفق المياه من هذا الثقب قد أيقظه مراراً في الليالي الممطرة فلا يعود قادراً على النوم.

ـ ولكن أنت تعلمين كيف تتوالى الأمور حين نبدأ بالاصلاحات، حتّى نكاد لا ننتهي منها. أفضل الحلول أن نبيع كلّ شيء قبل أن تزداد الأمور سوءاً.

ـ جميع الذين يملكون دُوراً كبيرة يقولون مثل هذا الكلام اليوم، قالت الخادمة الوفيّة. ومع ذلك فإنّ الفتاة الشابة التي كانت هنا بالأمس لم تخف دهشتها لاتساع الدار. لقد صمّمت على العيش هنا، أليس كذلك؟

كانت تلك بلا ريب طريقتها في الإيحاءِ بأنّه ينبغي أن يمتنع عن بيع الدار. . .

ـ إذن لا بدّ أن السيّدة كوريموتو قد أسرّت لك بأمرٍ ما؟

ـ أجل يا سيدي. ما أن جاءت الفتاة حتّى رافقتها لتُريها كلَّ نواحي البيت.

ـ هذا ما كان ينقصُ بعد!

لم يبد من كلام الفتاة مساء أمس ما يُشير إلى بادرة شيكاكو تلك. أيُعقل هـذا؟ كـان يحسب من جهته أنّها لم تـرَ من الدار سـوى ردهة الاستقبـال حيث التقيا ومن هناك عبرت ممرّ الحجارة وصولاً إلى الجناح في الحـديقة، تمـاماً كـما كان سيفعـل هو نفسُه اليوم.

لقد سبق أن أحسّ ليلة البارحـة، وكان أرِقـاً يُجافيـه النعاس، بـرغبةٍ تحثـه على العودة إلى التشاشيتسو ليتنسّم عطرها مرّةً أخرى. لكنّه قـاوم تلك الرغبـة وردّد في سرّه مغالباً أرقه، إنّها تنتمي إلى عالم مختلف لن يكـون في متناولـه أبداً. إنها تنتمي إلى عالم آخر... وإلى الأبد...

أما أن ترافقها شيكاكو لتطوف بهـا في أرجاء البيت، فـذلك مـا لم يخطر لـه على بال!

طلب كيكـوجي من الخادمـة أن تأتيـه بموقـد جمر إلى التشـاشيتسـو سـالكـاً ممرّ الحجارة.

كـانت شيكاكـو، بعد سهـرة البارحـة، قـد غـادرت بـرفقـة الآنسـة إينـامـورا لاضطرارها إلى العودة إلى كيتا ـ كاماكورا، وتركت للخـادمة مهمّـة العنايـة بترتيب جنـاح الشـاي. ولم يبق لكيكـوجي إذن سـوى أن يُعيـد الأواني الثمينـة والتحف الأخرى إلى مواضعهـا بعد أن وُضعت مؤقتـاً في ركنٍ من أركان الحجـرة الضيقة. غـير أنّه، لسوء الحظ، لم يكن يعـرف جيّداً الأمـاكن التي توضع فيها الأشيـاء، مُدركـاً بشيءٍ من الغيظ أنّ شيكاكو تعرف هذه الأماكن أفضل منه، فاستدار لتأمّل اللوحة التي عُلّقت مساء البارحة وعليها رسمـة شاعـر: تحفة صغـيرة من تُحف سوتـاتسو، عبارة عن خطوط دقيقة بالحبر وموشّاة بألوان خفيفة باهتة.

كانت الآنسة إينامورا قد سألته خلال السهرة عن اسم الرجـل الذي تمثّله هـذه الرَّسمة فما استطاع أن يجيب:

ـ يجب أن اعترف لك بأنني لا أعرف شيئاً عنها. فالشخصيّات التي تمثلها لوحاتٌ من هذا النوع تكاد تكون دائماً متشابهة، فكيف لي أن أعرف في غياب القصيدة؟

فتدخّلت شيكاكو:

ـ لا بدّ أنّه الشاعر مونييوكي (Muneyuki) وكلام القصيدة يقول تقريباً ما يلي: «خضرة الصنوبر التي تدوم على مدار السنة، تبدو، مع ذلك، أكثر تألّقاً مع اقتراب الربيع». قد يبدو هذا الكلام في غير أوانه مع انقضاء الربيع، ولكنّ والدك يا سيّد ميتاني كان يحبُّ هذه اللوحة كثيراً وغالباً ما كان يزين التشاشيتسو بها في فصل الربيع.

وإزاء هذه الشروحات أضاف كيكوجي أنّه يستحيل الجزم استناداً إلى اللوحة إذا كان الرسم لمونييوكي أولتسو رايوكي (Tsurayuki) وأنّه في تمعّنه في الوجه الذي لا يعكر صفاء سريرته أي تفصيل شخصي، بات يميل للاعتقاد أن لا سبيل لترجيح أحد الاحتمالين. وأضاف أن هذا لا يحولُ دون أن تكون هذه اللوحة الصغيرة بخطوطها الشفّافة المذهلة، ذات قدرة هائلة على الإيحاء والتأثير. وتكفي هنيهات قليلة من التأمّل فيها لكي يشعر الناظرُ أنّه مفعمٌ بالنقاء والطراوة.

كيف كان له ألاّ يحلم مرّةً أخرى بالآنسة إينامورا؟ ولم ينتشله من دوّامة أفكاره سوى قُدوم خادمته وقد جاءته بموقد الجمر والماء الساخن.

ـ أعذرني إذا كنتُ أبطأت عليك، ولكنّني أردت أن أغلي الماء أوّلاً. فالأفضل أن يكون الماء ساخناً.

لقد ظنّت أنّه طلب موقد الجمر لصنع الشاي. أمّا هو فلم يفكّر، فعلاً، إلاّ بالرطوبة التي تسود الجناح ولم يكن في نيّته أبداً أن يستعمل المغلاة.

ولكي لا يُخيّب ظنّها وضع الموقد على الأثفيّة وسوّى الجمر دون أن يُراعي في أدائه شيئاً من الأصول، ثمّ وضع عليها مغلاة الصفيح.

كان كيكوجي منذ نعومة أظفاره يعرف الكثير عن مجالس الشاي التي كان والده

أحد أشدّ هواتها حماسةً، غير أنّه لم يفكّر في يوم ما أن يمارس هذه الهواية. كما أن والده لم يُصرّ من جهته على تلقينه أصول هذا الفن.

في تلك اللحظة بالذات وفيما بخار الماء يتصاعد من المغلاة اكتفى كيكوجي الغارق في أفكاره، برفع الغطاء بحركة رتيبة دون تكلّف، مواصلاً شروده في أحلام يقظته.

كانت رائحة العفونة تملأ الحجرة. فقد نالت الرطوبة من الحُصُر التي تغطي أرضها. أمّا لون الجدران الكامد الذي كان ملائماً، مساء البارحة، لإبراز خيال مدعوّته الشابة ورشاقتها، فقد بدا اليوم كئيباً في عينيه.

لقد بدت له يوكيكو، في هذا الإطار، في صورة فتاة اعتادت على طريقة غربيّة في العيش، ولا ترتدي، إلاّ في المناسبات، الزيّ الياباني، ولا تراعي إلا استثناءً، لعبة اللياقات التقليديّة. وكان قال لها كمن يسعى للاعتذار:

ـ أحسب أنّ دعوة كوريموتو المفاجئة لا بدّ أن تكون أزعجتك. وهي أيضاً التي ارتأت أن نستقبلك في جناح الشاي هذا.

ـ لقد قالت إنّها الذكرى السنوية لحفل الشاي التقليدي الذي كان يقيمه والدك.

ـ وهي التي ذكّرتني أنا أيضاً. كنتُ قد نسيتها تماماً ولولا شيكاكو لما أبديت أدنى آهتمام بهذا الأمر.

ـ إنّ طباع الآنسة كوريموتو أستاذة فن الشاي لا تخلو من ميل للتهكّم، على ما أظنّ، إذ تدعوني أنا المبتدئة لمثل هذا الاحتفال التذكاري! وما يُضاعفُ من حرجي أنني لم أتبع دروسها بما تستحقه من مثابرة في الآونة الأخيرة.

ـ لم تنتبه كوريموتو إلى موعد الذكرى إلاّ بصورة مباغتة هذا الصباح فصمّمت على المجيء لتهيئة الجناح. إنّ رائحة العفونة تعبق في أرجائه، ألا تلاحظين؟

ثمّ أضاف فجأةً بصوتٍ مرتبك:

ـ بأيّة حال لقد سُررت بالمناسبة لأنها أتاحت لي أن أتعرّف إليك. ولستُ

نادماً على شيء إلّا توسّط هذه المرأة. . . أنا أسِفٌ جداً، وعلى الأخصّ فيما يعنيك أنت.

رمقته الفتاةُ في ذهول:

- ولكن ما الداعي؟ لو لم تكن الآنسة كوريموتو هنا لما استطعنا أن نلتقي. . .

وبالفعل، كان ما تقوله، على بساطته، صحيحاً، فلولا توسط كوريموتو لما التقيا في حياتهما. وشعر كيكوجي فجأةً بوقع الحقيقة المذهلة. ألا يعني كلامها هذا بوضوح أنّها توافق على خطّة الزواج؟ كان واثقاً من ذلك. فقد بدت له ملامح الذهول على وجهها ونظراتها الحائرة، وكأنّها أضواء مُسلّطة على مكنون ذات نفسها.

وتساءل أيضاً عمّا عساها تقول في سرّها حين يُسَمّي معلّمتها في فنّ الشاي «كوريموتو»، ببساطة ودون أي لقب تستوجبه اللياقة. أوتدري الفتاة أن كوريموتو كانت عشيقة والده، حتّى لو لم تكن هذه العلاقة أكثر من مغامرة قصيرة الأمد؟

- بالنسبة لي، قال مُفسّراً، ليست هذه سوى ذكريات أليمة ترتبط بشخص كوريموتو.

وأضاف متعثراً في كلامه:

- ولا أجدُ ما هو أبغضُ عليّ من أن تكون هي بالذات واسطة قدري، ولا أريد أن أصدّق أنّها هي السبب في تعارفنا.

في الأثناء كانت شيكاكو تدخلُ الحجرة وقد أحضرت ما هيّأته من طعام لثلاثة أشخاص.

- أتقبلان بي شريكاً لطعامكما؟ قالت وهي تتهالك جالسةً على الحصر كأنّها تستعيد أنفاسها.

ثمّ التفتت نحو الآنسة إينامورا وقد حنت جذعها قليلاً إلى الأمام وقالت:

- أنا آسفة حقّاً لأنّك، كما ترين، المدعوة الوحيدة. فربّما شعرتِ بالملل.

ثم انحنت قليلاً أمام كيكوجي وأردفت قائلةً:

ـ أنا واثقة، يا سيِّد ميتاني من أنّ والدك يشعر بالسعادة لهذه الذكرى وأنّ حضوره يُظلّل مجلسنا.

اكتفت الفتاة بأن أغضت مؤكِّدةً مرّة أخرى على شعورها بأنّها ليست أهلاً لتجاوز عتبة الجناح الموقّر في ذكرى السيّد الراحل والد السيّد ميتاني(*).

راحت شيكاكو ودون أن تعير كلام الفتاة أي اهتمام، تحكي لهما عن مكانة جناح الشاي هذا في حياة السيِّد ميتاني الأب، مستعيدةً ذكرياتها دون أي قصدٍ أو سياق.

وكانت تبدو على ثقة تامّة بالخاتمة المرجوة لزواج كيكوجي من الآنسة إينامورا. وعندما همّت بالمغادرة وقفت عند الباب وصرّحت بذلك بوضوح حين قالت لكيكوجي على مسمع الفتاة:

ـ في المرّة القادمة سنذهب نحن لزيارة الآنسة إينامورا. ولكنّنا، عندئذٍ، سنعلمها قبل يوم واحد من موعد الزيارة!

رحّبت الآنسة إينامورا بالفكرة بحركةٍ من رأسها وبدت كأنّها تهمّ بقول شيء ما، إلّا أنها تمالكت نفسها، كما لو كانت مرغمة، بحركة محبّبة تنمّ عن حياء وارتباك.

لم يتوقّع كيكوجي مثل هذه الرقّة في مشاعرها فبثّت فيه دفئاً تسرّب إلى ثنايا جسده: وبدا له فعلاً أنّه يستشعر دفئها متدفقاً في كيانه. وبرغم ذلك لم يُرفع الحجاب القاتم، الحجاب الدنس الذي كان يحجبُ الصراع المرير في أعماقه.

أصبح الآن يراهُ، وحيداً في سكون حجرة الشاي، ينسدلُ أمام ناظريه، حجاب القذارة والظلمات هذا. ليس فقط بسبب شيكاكو التي جعلته يلتقي الآنسة إينامورا! بل في داخله أيضاً، حيث يسود الدنس.

(*) عبارات التوقير التي تبدو غريبة تدخل هنا في باب إصرار الفتاة على الالتزام بأصول اللياقة المفرطة (م.ع).

كـان كيكوجي يـرى صورةً مـاثلةً في ذهنه: كـان يرى أبـاه يُعضعضُ بأسنـانـه المتّسخة البُقـع الدنسة على نحر شيكاكو. ويشعر بأن صورته لا تختلف عن صورة أبيه.

لم تكن الفتاة ترى أيّ سوءٍ في أن تكون شيكاكو هي التي تدبّرت لقـاءهما. أمـا هو، فكان لا يستـطيع الـرضوخ لحقيقـة أنّها لعبت دور الوسيط بـين الفتاة وبينـه. وكانت هذه الحقيقة سبباً في الضيق الـذي يعانيه ويجعله عاجـزاً عن الحركـة. وإذا كان هذا الاضطراب يفسّر جزءاً من تـردّده ولحظات ضعفـه فقد يكـون السبب في كلّ. . . ولكنْ لا، فثمة أشياء أخرى عديدة تُثقلُ عليه قلبه.

وإذا كان يمقت شيكاكو فهو يعرف، في الوقت نفسه، كم كان، هو أيضاً، غـير صـادقٍ في قـرارة نفسـه، حـين حـاول تـأجيــج حقـده عليهـــا، بحجّـة أنّها هي التي تفرض عليه مسألة زواجه من الانسة إينامورا. فهي، بـرغم كل شيء، لم تكن في كلّ هذا إلاّ في الموضع الصحيح واستطاعت بذلك أن تسهّل بعض الأمور.

وعندما وصلت به أفكاره إلى هذا الحدّ، كان كيكوجي كمَنْ تلقّى صفعـةً لمجرّد أنْ راودته الفكرة بأنّ الآنسة إينامورا قد تكون خمّنت ما يعتمل في داخله، ومكث في ذهوله مُدركاً عندها مقدار جبنه الذي كان غافلاً عنه.

بعد تناولهم الطعام انتهز غياب شيكاكو التي ابتعدت لصنع الشاي، وحاول أن يتابع الحديث الذي كان قطعه في حضورها:

ـ إذا كان لا بدّ لنا أن نرى في كوريموتو واسِطة قدرنا، قال، فأنـا أعتقد أننـا، أنت وأنا، نختلف في فهمنا للقدر.

وكان هذا كلَّ ما استطاع قوله وأيقن تماماً أنّ كلامـه أشبه بحجّـة تافهـة، أشبه بتبرير مُزعج ولا فائدة فيه.

بلى، وبات يُدرك الآن سبب الضيق الذي كان يُعانيـه، بعد وفـاة أبيه، عنـدما يعـرف مثلاً أنّ والـدته تمكث وحيـدةً في جناح الشـاي. بلى، كـان أدرك للتوّ: أنّ والده، فيما مضى، ثمّ والدته فيما بعد، ثمّ هو نفسه الآن، كلٌّ واحد منهم إنّما يختار العزلة في هذا الجناح لكي يمكث وحيداً في صحبة أفكاره. . .

كـان المطـرُ المنهمـر، في الخـارج، يُثقـل عـلى أغصـان الأشجـار المنحنيـة. وفي غمرة هذا الحفيف المتواصل ترامى إليه صوت قرقعة المطر فوق مظلّة تقترب.

وسمع صوت الخادمة يأتيه من الخارج مُعلناً:

ـ السيّدة أوتا هنا.

ـ السيّدة أوتا؟

ـ أجل يـا سيّدي. وأعتقد أنّها مريضة، فقد بدت لي على أسوأ حال.

مكث كيكوجـي الذي هبَّ واقفاً لسماعـه هذا النبـأ، في مكانـه يُغالب دهشتـه غير قادر على الكلام.

ـ أين ستستقبلها يا سيّدي؟

ـ هنا.

ـ حسناً.

كان على السيّدة أوتا أن تجتاز الحديقة تحت المطر الغزير لتصل إلى التشاشيتسو. لم يكن معها مظلّة فكان وجهها مبلّلاً حين وصلت. قال كيكـوجي في سرّه لا بـدَّ أنّها تركت مظلّتها عند المدخل. غـير أنّ ما كـان يقطر من وجههـا ليس المطر بـل الـدموع. وحـين أدرك كيكوجي حقيقـة هذا الأمـر هرع لملاقاتهـا وسألهـا في شبه صراخ: «ما الأمر؟».

جلست السيّـدة أوتا في وسط الـرواق الخارجي وقـد أسندت كفيهـا إلى أرضيّته ورفعت عينيها نحو كيكوجي. بدت كأنها على وشك السقوط عند قدميه، بل عـلى وشـك السقوط رويـداً في أحضانـه، كانت دمـوعها تتـدفّق وظنّ كيكـوجي مـرّة أخرى، إذ رأى قطراتٍ تبلل أرضيّة الرواق، أنّها قطرات المطر.

كانت عيناها مثبّتتين في عيني كيكوجي، وأنظارها متكئة عليـه بقوة حتّى بـدا أنّ هذا فقط ما يحول بينها وبين الإغماء. لم يكن بـوسع كيكـوجي، وقد أدرك خـطورة الموقف، أن يحيد بأنظاره عنهـا لشدّة يقينـه بأنّها ستقـع أرضاً لـو فعل. وكـان دون

قصدٍ منه يتفحّص علامات الأزرقاق حول عينيها وكأنها تلتهم وجهها، والبُشرة المجعّدة التي تُحاصر هذه النظرة المنكسرة والمحمومة والثابتة الكآبة والتي، مع ذلك، تفيض حناناً ورجاءً بسيل الدموع الذي يُكسبها رقّةً لا تُضاهى.

- أسألك الغفران، قالت. ولم يكن بوسعي احتمال المزيد. كان ينبغي أن أراك.

لم يكن صوتها، بل كيانها كلّه، إلاّ حبّاً. ولولا سيل الرّقة الدافىء والمدهش الذي كان ينضح منها لما كان بوسع كيكوجي أبداً أن يقوى على رؤية وجهها الضامر. كان قلبه يتفطّرُ لما ينمُّ عنها من ألمٍ مبرح. وبرغم اليقين بأنه السبب في كلّ ما يراه، لم يستطع إلاّ أن يشعر ببعض العزاء إذ تغمره بحنانها المتدفّق بلا حساب.

- تعالي بسرعة، أدخلي قبل أن تبتلّ عظامك، قال لها وقد رفعها بين ذراعيه وراح يجرها إلى الداخل دون أن تخونه، في استعجاله، بادرة قسوة أو فظاظة.

- دعني! . . . أتركني! همستْ السيّدة أوتا، تحاول السير بمفردها بعد أن أسنَدها إلى ذراعيه. أنا خفيفة الوزن، أليس كذلك؟

- بلى

- ذلك أني فقدت الكثير من وزني خلال الأيام الأخيرة. . تبدّلت أحوالي.

شعر كيكوجي أنّه نادم لما بدا منه من عنف وقسوة.

- ألم تخش ابنتك عليك لشدّة هزالك؟

- فوميكو؟

وعند سماعه نبرة جوابها اعتقد كيكوجي لوهلةٍ أنّ فوميكو ربّما كانت برفقتها.

- هل جئت برفقتها؟ سأل.

- أوه! لا. جئتُ خلسةً، قالت منتحبة. فابنتي لا تغفل عني لحظة واحدة. حتّى في آخر ساعات الليل تستيقظ لأدنى حركة منّي. بتُّ لا أعرفها لفرط ما تعذّب

نفسها بشأني، وتخاطبني بعبارات فظيعة. «لماذا أنا ولد وحيد؟ لماذا لم تنجبي أولاداً آخرين؟ كان بوسعك أن تنجبي من السيّد ميتاني، أليس بلى؟...» أسئلة متواصلة من هذا القبيل!

كانت السيّدة أوتا تتكلّم وقد تمالكت نفسها قليلاً. وأدرك كيكوجي، من كلامها، مقدار الأسى الذي تكابده ابنتها حيال العذاب الذي تعانيه أمّها بسببه هو. وأحسّ كأنّ شوكةً غُرزت في قلبه حين سمع منها أنّ الأمر أفضى بابنتها إلى حدّ البوح بأنّها تتمنّى لو أنّ أمّها أنجبت ولداً آخر من أبيه.

وأضافت السيّدة أوتا وهي لا تزال تحدّق بثباتٍ في وجه كيكوجي:

ـ قد تكون لحقت بي الآن لقد انتهزت فرصة غيابها لأتسلّل خلسةً من البيت. فلا بدّ أنها حَسِبت أنني لن أخرج بسبب المطر.

ـ بسبب المطر؟ ماذا تقصدين؟

ـ أجل. كانت تعتقد أنني لوهن قواي، لن أقوى على تحمّل مثل هذا الطقس الرديء.

أطرق كيكوجي ولم تبدر منه كلمة. فسألته السيّدة أوتا:

ـ لقد جاءت فوميكو لزيارتك، ذلك اليوم؟

ـ أجل. جاءت لتسألني الغفران لك، هذا ما قالته...، ولم أجد من ناحيتي فعلاً، بماذا أجيب عن سؤالٍ مثل هذا.

ـ أوه! أنا أفهم جيّداً حقيقة مشاعرها. وبرغم ذلك ها أنذا هنا من جديد! لماذا صنعت كلّ هذا؟... إنّه أمر فظيع. فظيع.

ـ ولكنْ إسمعي، ما الذي قد أكنّه لك سوى شعوري بالامتنان؟

ـ أوه! أشكرك. هذا أكثر بكثير ممّا توقعت... ولن أغفر لنفسي إحساسي بالتعاسة بعدَ...

ـ ولكنْ لماذا؟ لم يدفعك أحدٌ أو شيءٌ عنوةً إلى مثل هذه العلاقة... إلاّ إذا

كان المقصود هو طيف والدي!

ظَلّ وجه السيّدة أوتا خالياً من أي انفعال، كأنّها لم تسمع شيئاً. وأحسّ كيكوجي كما لو أنه يتحدّث في الفراغ.

ـ دعنا ننس كلّ شيء فلا نعود إلى التفكير في مثل هذه الأمور، قالت. كان عليَّ ألاّ أستسلم لمثل هذا الهلع إثر الاتصال الهاتفي الذي أجرته معي الآنسة كوريموتو! كم أشعر بالخجل من نفسي.

ـ كوريموتو اتصلت بك هاتفياً؟

ـ أجل، هذا الصباح. لتخبرني بأنّ مسألة زواجك من الآنسة إينامورا قد تمّت عملياً. أوه! لماذا كان عليّ أن أسمع النبأ منها هي بالذات؟ كان الأحرى أن أسمعه منك، أنت.

أغرورقت عيناها بالدموع وحسبَ كيكوجي أنّها على وشك البكاء حين ابتسمت له فجأة، لا، ليست ابتسامة الرضوخ لمن يودّ أن يضحك في غصّة دموعه. لا. بل ابتسامة طفل حقيقيّة، ساذجة ورقيقة.

ـ حتّى أني لم أعقد العزم بعد على الخوض في مثل هذه الحكاية، قال كيكوجي معترضاً. فهل سمحت لكوريموتو أن تعرف شيئاً من أخباري؟ وهل قابلتها في الفترة الأخيرة؟

ـ لا، لم أَرَها. ولكنْ ما أعرفه عنها يترك مجالاً للاعتقاد بأنّها قادرة، لو أرادت، أن تعرف كل شيء. وهذا الصباح بالذات، حين اتصلت، كان بإمكانها أن تخمّن شيئاً ما. . . للأسف، أنا امرأة خرقاء! وعاجزة!. . لقد انتابني ما يشبهُ الإغماء الخفيف ولا بدّ أنني صرخت. إذ من السهل جدّاً أن تخمّن مشاعر الآخر عبر الهاتف، أليس كذلك؟ على أيّ حال قالت لي كوريموتو: «أرجوك، يا سيّدتي العزيزة، لا تصطنعي أيَّ عائق».

انتابت كتفيها رعشةٌ كأنّها أُصيبت بقشعريرة حمّى. وشدّ التشنُّج فمَها واكتست قسماتُ وجهها المتغضّن بعلامات قلقٍ بلا حدود. كانت تبدو على وشك الإغماء.

نهض كيكوجي ومدّ يده ليمسكها من كتفيها ويسندها، ولكنّ السيّدة أوتا أمسكت بيده:

ـ أنا خائفة، آه! كم أنا خائفة، تنهّدت قائلةً وقد امتقع لونها وفضح الشحوب حقيقة سنّها.

كانت نظراتها تجولُ في كلّ ناحية. وفجأةً تفحّصت الحجرة بعد أن هدأت وسألته:

ـ أهذا هو الجناح العتيد؟

ودون أن يدرك كيكوجي ماذا تقصد بقولها، أجاب موافقاً ولكن بتردّد وغموض.

ـ إنّه تشاشيتسو مذهل! قالت.

ألأنّها فكّرت أنّ زوجها الراحل قد حلّ مراراً كضيفٍ في حجرة الشاي هذه؟ أم لأنها كانت تفكر بوالد كيكوجي؟

ـ أهي زيارتك الأولى لهذا المكان؟ سأل كيكوجي.

ـ أجل.

ـ ولكنْ لماذا تحدّقين بمثل هذا الاستغراق؟

ـ لا شيء... لا شيء...

ـ إنها لوحة لسوتاتسو: رسمةٌ لشاعر.

وافقت السيّدة أوتا بإشارة من رأسها وأطرقت.

ـ ولكنْ لا بدّ أنّك زرتِ البيت من قبل؟

ـ لا، أبداً.

ـ أحقّاً ما تقولين؟ قال كيكوجي بلهجة تعجّب.

ـ آه! بلى اغفر لي. مرّة واحدة... في مأتم والدك...

كان صوتها واهناً فعاجلها كيكوجي بقوله:

ـ لدينا ماء ساخن. فما رأيك؟ فقد يساعدك هذا على الانتعاش؟ وأنا أيضاً أودّ، بسرور، أن أتناول كوب شاي.

ـ بكلّ سرور، قالت: أتسمح لي؟

ترنّحت قليلاً حين نهضت ولكنّها سرعان ما تمالكت نفسها ببعض الجهد.

راح كيكوجي يفتح العُلبَ المركونة ويخرج منها الأكواب. وللحظةٍ ما، خطر له أنّ هذه الأواني قد استعملت بالأمس لشاي الآنسة إينامورا. ولكنّه سرعان ما طرد عنه هذه الأفكار وانكبَّ على إخراج هذه التحف الثمينة بعناية.

لم يكن بوسع السيّدة أوتا، إذ جلست قبالة الموقد تريد رفع غطاء المغلاة، أن تتمالك ارتعاش يدها. فأحدث الحديد، إذ ارتطم بالحديد، صوت رنين خافت. وعندما انحنت بجذعها إلى الأمام ممسكةً بالإبريق، تساقطت دموعها على أطراف الموقد مُحدثةً بعض الأصوات المكتومة.

ـ والدك هو الذي اشتراه مني أيضاً، قالت.

ـ حقّاً؟ كنت أجهل هذا الأمر.

لم يشعر كيكوجي بأيّ ضيق لسماعه بأنّ هذا الوعاء قطعة من طقم زوجها لأنّ اعترافها هذا كان غاية في البساطة والعفوية.

أعدّت الشاي ودعته لأن يقترب ويأخذ كوبه بنفسه! لا أستطيع أن أُحضره لك، قالت موضحة.

اقترب كيكوجي وجلس قرب الموقد ليتذوّق الشاي. وما لبثت، لشدّة وهنها، أن هوت على ركبتيه. فمرّر ذراعيه من تحت إبطيها وأحسَّ بأنفاسها المتسارعة.

وكانت أشبه بطفل تلقّاه كيكوجي بين ذراعيه لشدّة ما كانت خفيفة ومُستسلمة.

III

ـ سيّدتي! سيّدتي!

كـان كيكوجي يهـزّ بعنف هذا الجسـد الذي بـدا بلا حيـاة. ضغط على عنقهـا بجماع كفّيه كأنّه يريد أن يخنقها. وتحسست أصابعه نتوء الترقوة البارز تحت الجلد، وتجويف النقرتين وقد بدتا غائرتين أكثر بكثير مما كانتا من قبل.

ـ أليس بوسعك إذن أن تميّزي الفرق بين والدي وبيني؟

ـ آه! يـا لقسـوتـك. . . تنهّـدت قـائلةً بصـوتٍ رقيق وهي لا تـزال مغمضـة العينين.

صوتٌ قادم من العالم الآخر كأنّها تجد صعوبة في العودة إلى هذا العالم.

والحقيقة أن كيكوجي لم يقصد من كلامه هذا أن يطرح أسئلة على السيّـدة أوتا بمقدار ما كان يعبّر عن التشوّش الذي يُربك وعيه. فاستسلم طائعاً، بلا مقاومة، لما يجذبه هو أيضاً إلى هذا العالم الآخر. ولم يكن بوسعه أن يعثر على اسم آخر لهذا الكون الفريد الذي يستبعد أيَّ تمييز بين والده وبينه. هذا العالم الذي كان عليه في البداية أن يقتلع نفسه منه لكي يكابد، عندها، عذاب هواجسه.

كان لا يزال يسأل نفسه إذا كانت هذه المرأة التي بدت له كائناً غير حقيقي، هي الأولى أم الأخيرة في عداد كائنات العالم: هذا الكائن الذي تلاشت منه مزايا الفرد الماثل أمامه ليجعله فقط في حضرة «المرأة».

أهي في ذاتها أنوثة الأصل أم آخـر تجلياتهـا على الأرض؟ ذلـك أنها، في عالمهـا الخاص، ذلك العالم المفارق للزمن حيث وجدت ملاذها، لم تكن لتميّز، وذاك هـو البديهي، بين زوجها الراحل وبين والد كيكوجي أو كيكوجي، ابن هذا الوالد.

ـ اعترفي بأن أفكارك كلها لا تستعيد سوى ذكرى والدي: بأنك تخلطين تماماً بيني وبينه!

ـ عليكَ أن تغفر لي! إنّه أمر فظيع! أوه! كم أنا مذنبة!

تدفّق من عينيها سيلٌ من الدموع سالت على خدّيها.

ـ يؤسفني حقاً أنني ما زلتُ على قيد الحياة! كم أودّ أن أموت الآن، أوه! وكم تكون سعادتي عظيمة! كيكوجي لقد طوّقت عنقي بيديك كأنك تريد خنقي... فلماذا لم تفعل؟

ـ هيّا، هيّا! لا تتفوّهي بحماقات! قد يبدو لك الأمر سخيفاً، ولكن إذا كان عليَّ أن أصارحك، أعترف بأنّ الرغبة في خنقك قد راودتني في تلك اللحظة.

ـ حقّاً! أواه! آه لو تعلم كم أودّ فعلاً لو تفعل الآن!...

واقتربت منه بحركة خفيفة وقد كشفت عن عنقها الرشيق.

ـ لن يكون الأمر صعباً نظراً لضعفي وهزالي...

ـ وابنتك، أتتخلّين عنها هكذا؟

ـ مهما يكن. فأنا لن أقوى على العيش بهذه الطريقة. سأموت لشدّة حزني. وعندها ستتولّى رعاية فوميكو، أنا أطلب منك أن تفعل، أليس كذلك؟

ـ آه! لو أنّ ابنتك تشبهك!

فتحت السيّدة أوتا عينيها وحدّقت بكيكوجي الذي بدا عليه الضيق للكلام الذي تفوّه به دون أن يقصد، ولا يعرف كيف صدر عنه أو لماذا. فماذا عساها تظنّ به الآن؟

جذبت يده نحو صدرها وشدّت عليها.

ـ أتشعر به؟ إنه يخفق بنبضات غير منتظمة!... أصبحت أيامي معدودة.

هل هي عبارة كيكوجي التي زرعت الاضطراب في قلبها؟

ـ كم عمرك بالضبط يا كيكوجي؟

لم يردّ على سؤالها.

ـ أنا واثقة من أنّك لم تبلغ الثلاثين، ألست محقّة؟ أوه! يا لي من امرأة بـائسة! يا لفظاعة ذنْبي! كيف لك أن تغفر لي أبداً؟ أنا نفسي لا أفهم ما. . .

نهضت عن الأرض ورمت بثقلها على ركبتيها المثنيّتين وقد أسندت جـذعها بيـد واحدة.

وبدوره جلس كيكوجي.

ـ لا، قالت مُعترضة، لم يكن أبداً في نيّتي أن أدنّس زواجك، صدّقني، ولا أن أكون عقبةً في طريق يوكيكو. ومع ذلك ساءت الأمور إلى هذا الحدّ. . .

ـ لم أعد أعرف على الاطلاق إذا كنت سأعقد العـزم أخيراً عـلى الزواج منهـا، ردّد كيكوكي قائلاً. ولكنْ بما أنّك تصرّين على طرح هذا الموضوع فأنا أعترف لكَ بأنّك، على العكس من ذلك، قد ساعدتني على الشفاء من ذكريات الماضي.

ـ آه؟

ـ أجل: فكوريموتو تلك التي تبذل ما بـوسعها لإتمـام الزواج كـانت هي أيضـاً على علاقة عابـرة بوالـدي، وهي التي تنفثُ فيّ سمٌّ هذا المـاضي. أما أنت، فعـلى العكس، لقـد أحبَّك والـدي حتى آخر يـوم في حياتـه. . . وأعتقد أن حبَّـك كان يُشعره بسعادة كبيرة.

ـ يجب أن تتزوّج من يوكيكو بأسرع وقت ممكن.

ـ هذا الأمر لا يعني أحداً سواي.

كانت تحدّق فيه بنظرةٍ خـاوية كـأنّها ساهيـة عنه. بـدا وجهها شـاحباً وبحـركة عفوية رفعت يدها إلى جبينها:

ـ أعتقد أنّه سيُغمى عليّ. . . أشعر بدوار.

ولأنّها أصرّت على العودة إلى دارها، طلب كيكوجي سيّارة أجرة ورافقها في طريق عودتها.

وفي السيّارة مكثت، مغمضة العينين، وقد أرخت جسمها عند طرف المقعد بلا حراك بحيث أثارت مخاوفه. فقد بدا أنّ قواها أصبحت شديدة الوهن وأنّها على وشك أن تفارق الحياة. وكانت يداها باردتين كالثلج حين أوصلها كيكوجي إلى الباب دون أن يدخل.

في الليلة نفسها اتصلت به فوميكو هاتفياً عند الثانية بعد منتصف الليل.

ـ السيّد ميتاني؟ منذ قليل... أمّي... (ساد صمت قصير ثمّ تكلّمت بوضوح)... لقد ماتت أمّي.

ـ كيف؟ ماذا؟ ماذا تقولين؟ ما الذي أصاب أمّك؟

ـ لقد ماتت، نوبة قلبية.

ـ كانت في الآونة الأخيرة تُكثر من تناول الحبوب المنوّمة.

مكث كيكوجي صامتاً.

ـ أودّ أن أسألك خدمة يا سيّد ميتاني.

ـ ماذا؟

ـ إذا كانت لديك معرفة وثيقة بطبيبٍ ما، أرجو أن تأتي به؟

ـ تقولين: «طبيباً»؟ آه! أجل، طبيب. أجل، فهمت. سآتي به حالاً.

وسرعان ما فهم كيكوجي، بعد أن مكث مذهولاً لعدم وجود طبيب هناك، أنّ السيّدة أوتا قد انتحرت، وأن فوميكو اتصلت به طلباً للمساعدة في محاولةٍ منها للتكتّم على هذا الأمر.

ـ لا تقلقي، سأهتمّ بهذا الأمر.

ـ أتّكل عليك.

لا بدّ أن فوميكو قد فكّرت طويلاً قبل أن تتصل به. لـذا كانت نـبرتها مقتضبـةً وحازمة وليس فيها سوى الضروري من الكلام.

مكث كيكوجي في مكانه جالساً قبالة الهاتف وأغمض عينيه.

كان يستعيد في ذاكرته منظر الغروب الـذي رآه في طريق عـودته في القـطار بعد لقـائه والسيّـدة أوتا في نـزل كيتا ـ كـامـاكـورا. شـمس المغيب وهي تغـربُ خلف أجمات معبد هو مّونجي في إيكيغامي.

شمس حمراء مُلتهبة كانت تبدو وكأنّها تداعب وريقات الأشجار الجليلة قبـل أن تهوي في الأفق وقد صبغت أشعتُها السماءَ بوهجها المذهب.

وفي السماء المشعَّة ترتسم، في ظلالٍ قاتمة، رؤوس الأشجار الهـرمة المُهـذَّبة، والتي لا تزال تومضُ من خلال أغصانها بوارقُ نور لألاء، أجبره على إغـماض عينيه التعبتين.

كما الآن، تريّث خلف جفنيـه المغمضين، كـلُّ ألق السماء المسـائية. وفي وهـج هذا الألق كان يحسبُ أنّـه يرى، كـما الآن، رفرفـة ألفٍ من الطيـور البيضاء عـلى فوطةٍ ما ورديّة اللون.

الكتاب الثالث

أشينو

I

أرجأ كيكوجي زيارة التعزية إلى صباح اليوم الذي يلي اليوم السابع حيث يقام المأتم التذكاري بعد مراسم دفن السيّدة أوتا. وحرصاً منه على الوصول في الموعد المحدّد، كان عزم على مغادرة مكتبه في ساعةٍ مبكرة، ولكنّه، في حيرته وتردّده، ماطل كثيراً فلم يترك مكان عمله إلاّ في موعد الإقفال المعتاد.

جاءت فوميكو لاستقباله عند المدخل، فركعت وانحنت وقد بسطت كفّيها على الأرضيّة. كأنها بذلك تستند بيديها لتداري ارتجاف كتفيها. وإذ مكثت على هذه الحال رفعت عينيها نحو الزائر:

ـ أشكرك على الورود التي أرسلتها بالأمس.

ـ أوه! لا داعي للشكر!

ـ بما أنّك أرسلت وروداً فقد ظننتُ أنّك لن تأتي. . .

ـ وما هذا الظنّ؟ ألم يخطر لك أنني ربّما أرسلت الورود قبل مجيئي؟

ـ لا، لم يخطر لي هذا.

ـ لقد أوصيت على الورود يوم أمس لدى متجر ورود في حيّكم وقريب جدّاً من داركم.

أومأت فوميكو برأسها أنّها تعلم:

ـ لقد أيقنت على الفور أنّك مرسلها وإن كانت لا تحمل بطاقة منك.

فجأة استعاد كيكوجي الشعور الذي انتابه في المتجر بين الورود يتنشق عطرها

الخفيف وكأنّه يبلسم قلقه ويخفّف من بعض كدره لشدّة إحساسه بالذنب، مُلطّفاً أفكاره المريرة التي يطغى عليها حضور السيدة أوتا.

وكذلك فوميكو كانت في طريقة استقبالها تُشيع لمسةً من الرقّة في الأرجاء.

كانت ترتدي فستاناً أبيض من القطن. وجنتاها الشاحبتان خاليتان من أي صباغ أو زينة. فقط أثر أحمر شفاه مرّرته خفيفاً على شفتيها اللتين وسمها الأسى فبدتا جافتين.

ـ لقد وجدتُ أنّه من الأفضل ألا آتي بنفسي يوم أمس، أضاف كيكوجي.

وبحركة منها أزاحت فوميكو ركبتيها كأنّها بذلك تدعو زائرها للدخول. دخل كيكوجي مُدركاً أنّها تكلّمت لحبس دموعها، بعد جُهدٍ، عند العتبة، وأنها لن تقوى على تمالكها لو طال بها الموقف أكثر مما ينبغي.

ـ لن تعرف أبداً مدى سعادتي حين تلقيت الورود! ـ لكنْ لم يكن هناك ما يحول دون مجيئك يوم أمس، قالت وهي تنهضُ لتلحق بكيكوجي إلى الداخل.

ـ لم أكن أرغب في أن أسبّب أي حَرَج في حضور الأقرباء، اعترف لها كيكوجي جاهداً في أن يكون كلامه تلقائياً.

ـ أوه! أنا لا آبه لمثل هذه الأمور، أوضحت فوميكو بحزم.

كان مذبحُ الفقيدة في صالة الاستقبال وقد زيّن بصورة للسيّدة أوتا أمام المرمدة. ولاحظ كيكوجي، بشيء من الدهشة، أنّه لم يكن هناك ورود غير تلك التي أرسلها هو، فهل أخفت فوميكو كلّ الورود الأخرى ولم تحتفظ إلاّ بوروده؟ أم أنّ الاحتفال بذكرى اليوم السابع للحداد اقتصر على عدد قليلٍ من المقرّبين؟

ومال كيكوجي لترجيح الافتراض الثاني.

ـ إنه إبريق ماء (ميزوساشي)، أليس كذلك؟ سألها.

ـ أجل، جاوبت كيكوجي، مدركة أنّه يقصد الوعاء الذي وضعت فيه الورود. لقد بدا لي ملائماً لها.

ـ يبدو أنّه من الشينو(*) الجيّد، قال كيكوجي جازماً.

كان الإناء، في شكله المدوَّر الواهي، يبدو منمنماً بخلاف أوعية الميزوساشي الأخرى، ببرغلته الكامدة وصباغه المُغرّ بالكاد، ويَنسجم تماماً مع لون الورود: أزهار بيضاء وقرنفل يميل إلى الزهري الباهت.

ـ كانت أمي تفضل استخدامه للورود، ولهذا السبب رفضت أن تبيعه.

انحنى كيكوجي أمام مذبح الفقيدة وأحرق لها البخور. ثمّ ضمّ كفّيه مستغرقاً في الصلاة مغمض العينين سائلاً الفقيدة الغفران. إلاّ أنّ هذه الصلاة التي أرادها راجية حارّة بدت وكأنّها فقدت شيئاً من حرارتها ورقّت بعرفانٍ شديد التأثّر لذكرى حب الفقيدة التي يهبّ حنانها فيخفف من إحساسه بالندم ويلطفه.

أتكون خطيئتها هي التي أسلمتها للموت بعد أن فقدت كلّ سبل الخلاص منها؟ أم أنّ قوّة حبّها التي ما عادت تقوى على كبتها هي التي دفعتها إلى الموت؟ الخطيئة أم الحب؟ ذلك هو السؤال الذي كان يُعذّب كيكوجي منذ أسبوع، ليلاً نهاراً، دون أن يعثر على جواب.

والآن، إذ يخشع هنا، راكعاً، مغمض العينين، أمام مذبح المرأة الميتة، لا يجد غرابةً في الشعور الذي ينتابه بأنّ دفئها العَطِر الرقيق، يعتري كيانه بعذوبة دون أن يُثير في روعه أيّ استيهام، مهما كان، لجسدها. كان يتلقّى، بشكل طبيعي هذا الحضور الحسي والمفارق للجسدِ في وقت معاً، الموسيقي أكثر مما هو لَدُنّي، ويرى أنّه يتطابق كليّاً وأعماق طبيعة المرأة التي كانتها.

منذ أن بلغه خبر وفاتها، كان كيكوجي لا يستطيع النوم فلجأ إلى الكحول والحبوب المنوّمة. إلاّ أنّ نومَه ظل خفيفاً ومتقطعاً تشوبه يقظات مفاجئة وإن كان يزخر بالأحلام اللذيذة وليس الكوابيس: أحلامٌ تفعم روحه بالبهجة وتواصل

(*) إنّ هذا الطراز الياباني النموذجي من الخزف يعود إلى القرن السادس عشر ويتلاءم، على نحو مثاليٍ، وضرورات فن الشاي البسيطة. ووعاء E-shino (عنوان هذا القسم من الكتاب) ويعني حرفياً الشينو الملوّن، يحمل نقشاً تجريدياً باللون البني الأصهب، يبدأ قانياً تحت الغطاء شبه الشفّاف ثمّ يبهت برشاقة وتتفاوت حدّته بتنوّع لا مثيل له.

خدرها طويلاً بعد اليقظة. وكان يتساءل، بشيءٍ من الذهول، كيف لامرأة ميتة أن تُطيل بالحلم أمد الدفءِ المُسكِر لأحضانها. ذلك أنّه كان لا يزال يشعر بطيب ذاك العناق برغم ما يلقاه من صعوبة في الاقتناع بأنه كان حقيقياً.

في المرّة الأولى، ليلة لقائهما في ذلك النزل في كيتا ـ كاماكورا، وفي المرّة الأخيرة أيضاً حين جاءت لتراه في جناح الشاي، قالت بغضب: «أوه! كم أنا مذنبة!» ـ ولكنّها في قولها هذا كانت ترتعش لدعاء أو لذكرى مباهج الجسد أكثر منها خشيةً أو بأساً. والآن، أليس هذا ما يهزّ كيان كيكوجي أمام المذبح الذي أقيم لمأتمها؟ لأنّه، برغم إحساسه بالذنب، حيال وفاة السيّدة أوتا، كان يتراءى له أنّه يسمع صوت الحبيبة، حيّة وقريبة، وهي تبكي، هي أيضاً، كما كانت تبكي في السابق، تحت وطأة الشعور بالإثم والجريمة، الإحساس بخطيئتها.

فتح كيكوجي عينيه. وخلفه كانت فوميكو تجلس خاشعةً، وأدرك أن ما سمعه ليس سوى بكائها. كانت تقاوم دموعها طوال الوقت ولا بدّ أن الفتاة المسكينة لم تقدر حبس دموعها لمدة أطول، فبكت ولكنّها لم تلبث أن تمالكت نفسها من جديد.

حاول كيكوجي، دون أن يجرؤ على الالتفات وهو لا يزال راكعاً، أن يهتدي إلى كلامٍ يقوله لها.

ـ ما عمر هذه الصورة؟ سألها.

ـ خمس أو ست سنوات تقريباً. إنها في الأصل صورة صغيرة ثمّ عمدنا إلى تكبيرها.

ـ ألم تؤخذ خلال مجلس شاي؟

ـ يا لصدق حدسك!

وبالفعل لم تكن الصورة الجانبية المكبّرة تُظهرُ أيّ تفصيل سوى الوجه. إذ لا يظهر من النحر إلاّ قسمه الأعلى حيث يلتفُّ الكيمونو من الجانبين دون أن تظهر الكتفان.

ـ كيف استطعت أن تخمّن أنّها كانت تشارك آنذاك في مجلس شاي؟

ـ مجرّد انطباع، قال كيكوجي مفسّراً. فالنظرة مخفوضة، والعينان منتبهتان كأنّهما تـراقبان حـركة اليـدين. صحيح أننـا لانرى الكتـفيـن إلاّ أنّ أثـر التـوتّـر بـادٍ في مظهرها.

ـ للأسف، ليست سوى صـورة جانبيّـة للوجه. وبـرغم معرفتي الأكيـدة بمدى تعلّق أمي بهذه الصورة فقد تردّدت بعض الشيء في وضعها على المذبح.

ـ إنها صورة ممتازة، يظهر فيها بوضوح كل ما كانت تبديه من صفاء سريرة.

ـ أجل، ولكنْ برغم ذلك يبدو لي من غـير اللاّئق أن تكـون الصورة جـانبيّة. فمن الأفضل أن تكون مُواجهة، تحدّق في الضيوف الذين يقدّمون لها البخور. ألا توافقني الرأي؟

ـ ماذا؟ . . . آه! بلى، ربّما تكونين على حقّ.

ـ أهذا ما تراه فعلاً؟ قالت وقد أطرقت قليلاً وسَهَت نظراتها عنه.

ـ بلى، هذا صحيح. لم أفهم في البداية.

كـان كيكوجي يفكّـر في الشاي الـذي صنعته في بيتـه عشيّة وفـاتهـا. واستعـاد صورتها وهي تمسك مغرفة القصب فيما دموعها تتساقط على غطاء الموقـد الساخن. اقترب منها ليأخذ كوب الشاي، وحين فرغ منه كانت الـدموع قـد جفّت. وما أن وضع الكوب أمامه حتى انهارت على ركبتيه. . .

ـ عنـدما التُقـطت هذه الصـورة لم تكن قد هـزلت بعد، قـالت فـوميكـو بشيءٍ من التردّد، ثمّ اعترفت:

ـ لا أعـرف لماذا. . . ولكنّي لا أحبّ أن أعـرض صـورةً لهـا. . . فهي تشبهني كثيراً! وهذا ما يُشعرني بالخجل. . .

التفت كيكـوجي لينظر في عينيهـا ولكنّ العينين اللتـين لم تفارقـا ظهـره أغضتـا فجـأة. وفكّـر أنّـه آن الأوان لكي ينهض من أمـام مـذبـح الفقيـدة ويجلس قبـالـة فوميكو. ولكن ماذا يقول لها؟ وبأي كلمات يسألها الغفران؟

إذ لمح إناء الشينو، أو الأحرى الميزوساشي الذي استخدم كمزهرية، أسند كفيه بخفة على الحصـير أمام هـذا الإناء الخـزفي لكي يتأمّله بـإمعان عـلى جاري العـادة

المتّبعة في التعاطي مع تحف الشاي المماثلة.

كانت التماعة رهيفة حمراء تلوّنُ، كطيفٍ، صباغه الأبيض الكامد، باهرة وحارّة في ذاتها، ولكن دون أن تمسَّ أو تعكرّ برودة الخزف ونقاءه الطبيعي. ونحو هذا الشكل المثير، مدَّ يداً تتوق للّمس.

- كم أحبّ الشينو الجيّد، قال. إنّه رقيق... كحلم!

وكاد يقول: رقيق كما يمكن لحلم امرأة أن يكون رقيقاً. ولكنّه استطاع أن يكتم الكلمات الأخيرة في اللحظة المناسبة.

- إذا أعجبك الإناء، فاسمح لي أن أقدّمه لك هديّةً لذكرى أمّي.

- أوه! لا، أجاب معترضاً وقد بدت عليه المفاجأة.

- بلى، إقبلْ هديّتي، أرجوك. إنّ أمّي كانت لتسرّ كثيراً لو علمت بأنك أنت من سيأخذ الإناء. أمّا من حيث قيمته كقطعة شينو فأحسب أن لا بأس بها.

- بالطبع، بل هي من نوعية نادرة!

- هذا ما قيل لي أيضاً. ولهذا السبب أردت أن أضع فيه الورود التي أرسلتها أنت.

لم يستطع كيكوجي أن يداري دموعه التي ملأت عينيه لشدّة انفعاله المفاجىء، وأبدى لها امتنانه على الهديّة التي يقبلها بسرور.

- سيكون هذا من دواعي سرور أمّي!

- ولكنْ، صدّقيني، المشكلة أنني لن أستخدمه إلّا كمزهريّة لأنني غير قادر على استخدامه كميزوساشي(*)، أي كما ينبغي أن يكون في الأصل، وهو وجه الاستخدام الوحيد الذي يليق بقيمته.

- سيّان! أمّي أيضاً كانت تستخدمه كمزهريّة، فلا بأس إذاً.

(*) أي كإبريق ماء يُستخدم في مجالس الشاي.

- أجل، ولكن حين أتكلّم على الورود فأنا لا أعني الباقات التي تزيّن مجالس الشاي. أليس مؤسفاً أن تُستخدم مثل هذه الأواني الثمينة لأغراض لا تليق بما صنعت فعلاً لأجله؟

- أوه! أحسبُ أنني، أنا أيضاً، سأتوقف عن مزاولة فنّ الشاي.

ارتأى كيكوجي أنّه من غير اللائق المكوث لوقتٍ أطول أمام التوكونوما التي أولاها ظهره ليتحدّث إلى فوميكو. وهكذا نهض وأزاح أريكته نحو النافذة المطلّة على الحديقة وجلس هناك.

لم يكن لفوميكو التي مكثت خلفه منذ أن خشع أمام مذبح الفقيدة، أريكة تحت ركبتيها. وبدت الآن وحيدة ومتروكة في وسط الحجرة. كانت يداها مرخيّتين على ركبتيها وقد ثنت أصابعها قليلاً. وفجأة تشنّجت قبضتاها وارتعدتا.

- أرجوك يا سيّد ميتاني إغفر لأمّي! قالت مطرقةً وقد حنت جذعها بحركة مفاجئة حتى حسب كيكوجي للحظة أنّها على وشك السقوط.

- لا تتكلّمي بهذه الطريقة أرجوك! قال لها معترضاً. فإذا كان هنالك من ينبغي أن يسأل الغفران فهو أنا من دون شك، ولذلك ليس أنا من سيغفر لأحد! لا أجد ما يبرّر خطيئتي! وكان الأجدر بي، لإثمي وعاري، أن امتنع عن المثول أمامك!

- كلّ العار لنا نحن، جاوبت فوميكو وقد احمرّت وجنتاها. كم أودّ أن تبتلعني الأرض، فقط لو كان هذا ممكناً!

حيال هذا اللون الذي صبغ خدّيها الخاليين من أي زينة وطاول عنقها الأبيض الدقيق، انتبه كيكوجي فجأةً، وهو في غمرة اضطرابه، لشدّة الأحزان التي ألّمت بها وأوهنت قواها وسلبتها دماءها: إذ يكاد هذا الدم المسكين الذي احتقن في وجهها لا يصبغ بشرتها، وفي مواضع منها، إلاّ بطيف زهري لا يحجب طغيان الشحوب عليها.

- لا بدّ أنّك حقدت عليّ كلّ الحقد، قال.

- حقدتُ عليك؟ ولماذا أحقد عليك؟ هل كانت أمي تحقد عليك؟

ـ لا. ولكنْ، أنا المسؤول عن موتها.

ـ لقد أرادت الموت بملء إرادتها. على الأقلّ هذا اعتقادي. فأنا لم أكفّ لحظة طوال الأيام الثمانية الماضية عن التفكير في هذا الأمر، بمفردي.

ـ وهل مكثت بمفردك هنا؟

ـ أوه! لطالما عشنا منفردتين، أمّي وأنا، وأنا معتادة على حياة العزلة هذه.

ـ وبسببي، ها أنت أكثر وحدة الآن!

ـ أؤكد لك، أنّها لاقت حتفها بملء إرادتها. وإذا كنت مصرّاً على الإحساس بالذنب فما تراني أقول أنا؟ فإذا كان لا بدّ أن يُلامَ أحد فلن يكون سواي. إلاّ أننا في إصرارنا على الإحساس بالذنب وتوجيه الملامة إلى أنفسنا لا نكون إلاّ كمن يدنّس موتها ويهتك سرّه. وأحسبُ أنّ مثل هذه المشاعر، حين يغذيها الأحياء، لا تؤدّي إلاّ لمضاعفة العبء الذي يُثقل كاهل الموتى.

ـ أنت محقّة من دون شكّ. ولكن لو لم أعرف أمّك...

صمت كيكوجي عاجزاً عن متابعة كلامه.

ـ الأموات ينعمون بالراحة، على ما أعتقد، عندما يحظون بغفرانهم. وأمّي ماتت لتنال الغفران. وأنت ستفعل، أليس كذلك؟ ألن تمنحها غفرانك؟

بعد أن تفوّهت بهذه الكلمات نهضت فوميكو وغادرت الصالة.

أما كيكوجي فقد شعر، من جهته، وكأنّ غشاوة قد تبدّدت في رأسه.

ـ التسرية عن الموتى... بلى، بدا له أنه يُدرك هذا الأمر... فتأنيب الضمير بشأنهم أشبه باحتقارهم. خطأ يُرتكبُ في حقّهم بغير قصد. فالأموات لا يعظون الأحياء. ولا يطلبون منهم أن يُطبّقوا المفاهيم الأخلاقية نفسها...

ومرّة أخرى تأمل كيكوجي في صورة السيّدة أوتا، الموضوعة هناك، بجانب باقة الورود على التوكونوما.

II

عـادت فوميكـو إلى الصالـة حاملةً صينيّـة الشاي وعليهـا كوبـان من الخـزف، أحدهما أحمر والثاني أسود.

وضعت أمامه الكوب الأسود وفيه شاي أخضر من النوع الرائج، شاي البنشا.

رفع كيكوجي الكوب ليتفحّص الختم المنقوش عليه من أسفل.

ـ أي طراز؟ سألها بلا مقدّمات.

ـ طراز ريونيو، إن لم أكن مخطئة.

ـ والأحمر أيضاً؟

ـ أعتقد.

ـ إنّهما يُشكّـلان طقماً إذن، افـترض كيكوجي محـدّقاً في الكـوب الأحمـر الـذي وضعته فوميكو أمامها.

كوبان لا تشوبهما شائبة من حيث الشكل والحجم ومُعدّان لتذوق البنشا، لكنّهما أيقظا في ذهن كيكوجي بعض الذكريات البغيضة.

عندما كان والد كيكوجي يأتي لزيارة السيّـدة أوتا، بعـد وفاة زوجهـا، أما كـانا يستخدمان هذين الكوبين لتناول الشاي، الأسود لـوالد كيكـوجي والأحمر للسيّـدة أوتـا؟ طقمٌ مخصّص للّقاءات الغـراميّة... وربّمـا كانا يحمـلان هذا الـطقم نفسـه خلال رحلاتهما لأنّ طراز ريونيو من الخـزفيّات التي لا تحـول قيمتها دون نقلهـا في الأسفار... وإذا كانت هذه الافتراضات صحيحة فـلا بدّ أن فـوميكو لا تجهلهـا: ومـا يدعـو إلى العجب اختيارهـا لهذين الكـوبين تحـديداً. الأمـر الذي يجعـل من

سلوكها هذا تصرّفاً غير لائق على الإطلاق.

ولكن كيف له أن يرتاب بوجود نيّة مبيّتة لا تخلو من التهكّم والخداع؟ لا، الأحرى أن يردّ سلوكها هذا إلى سذاجة الأهواء التي تنتاب فتاة شابّة مثلها، تلك الأهواء التي لا يملك هو نفسه في الحقيقة أن يظلّ بعيداً عن تأثيرها.

كان الحزن قد استنفد قواهما ولذا كانا بلا ريب يجدان صعوبة بالغة في مقاومة مثل هذا الميل العاطفي المتبادل. إلّا أنّ تلازم الكوبين في المناسبة لا بدّ أن يرمز إلى اتحادهما العميق في مشاعر الحداد المشتركة.

لم تكن فوميكو تجهل شيئاً من الصلات التي جمعت بين والد كيكوجي وأمّها، وبين كيكوجي نفسه وأمّها. فضلاً عن علمها الأكيد بالطريقة التي ماتت بها والدتها. وكانا، هما الاثنان، بمثابة شريكين، يحرصان معاً على طمس واقعة الانتحار. . . الأمر الذي يقرّبهما أكثر، في السرّ، واحدهما من الآخر.

لا شكّ أن فوميكو بكت حين خرجت لإعداد الشاي: فقد كانت عيناها حمراوين.

ـ أعتقد أنني كنت مُحقّاً في إصراري على المجيء اليوم لأراك، قال كيكوجي. فما كنت تقولينه منذ قليل ربّما يعني أنّ من بين الذين يموتون والذين يبقون من بعدهم لا مجال لمنح الغفران أو تقبّله، ولا أي شيء من هذا القبيل. ولكن فيما يعنيني، فأنا، برغم ذلك، أودّ أن أصدّق، وأن أحيا كأنني نِلتُ غفران أمّك.

وافقت فوميكو بحركة من رأسها.

ـ لأنّك، إن لم تفعل، لما استطعت أنت أيضاً أن تغفر مدى الحياة لأمي التي لم تقدر بالتأكيد أن تغفر لنفسها. . .

ـ قد يكون مجرّد وجودي هنا ومخاطبتي إياك وجهاً لوجه، تصرّفاً وقحاً، بل وحتّى مُشيناً؛ قال كيكوجي.

ـ لماذا؟ سألته وهي ترفع أنظارها نحوه. ألأنّك تلوم والدتي على موتها؟ أنا أيضاً حين ماتت تملّكني الغضب في يأسي، وفكّرتُ بأنّ الموت ليس حلاً لأيّ شيء.

فكلّ ما صنعته أمّي لا يمكن أن يُفهم أو يُفسّر إلّا خطأً، ويأتي الموت، بمعنى ما، ليرسّخ سوء الفهم هذا ويؤكّده إلى الأبد. فالموت هو أن ترفض كلّ تفهُّم من قبل الآخرين وإلى الأبد. ولا يعود بوسع أحدٍ أن يفهم صنيع مَيت. وليس بمقدور أحدٍ أبداً أن يجد له ما يبرّره.

مكث كيكوجي صامتاً وقد أدرك أنّ فوميكو تحاول، هي أيضاً، أن تقتحم حصن الموت المستغلق هذا.

كان يبدي ذهوله لسماعها وهي تقول إن الموت هو رفضُ أنْ يُفهمَ الميت من قبل الآخرين.

وبات يُقنع نفسه الآن بأنّ هناكَ فرقاً شاسعاً بين المرأة التي يعرف أنها أمّ فوميكو وتلك التي تسعى فوميكو إلى فهمها. كان موقناً من أنّ فوميكو، مهما فعلت، أبداً لن تستطيع أن تفهم هذا الجانب، الأنثوي في جوهره، من شخصية أمّها.

وكان، فيما يعنيه، لا يرى في منح الغفران أو نيله إلّا وجهين لحقيقةٍ واحدة في حلمه، في أحلامه الغرامية حيث كان يسترجع ذلك الحضور الدافئ لجسد المرأة، ويهتزّ كيانه لإيقاع التموّجات الشهويّة والرقيقة التي يُبثها هو بنفسه. نشوة عذبة يذوق سحرها حتّى في التناسق الذي يراه في زوج أكواب الشاي، الأسود والأحمر.

لا، كانت فوميكو تجهل كلّ شيء عن جوانب الأنوثة في أمّها. ولم يكن بوسعها أن تعرفها.

ولكنْ كم كان مُستغرباً إذن أن يظلّ الجسد المولود من ذلك الجسد غريباً إلى هذا الحدّ، وجاهلاً إلى هذا الحدّ، برغم انتقال شكل الجسد الأمومي، بهذه الصورة الدقيقة والرائعة، إلى الابنة!

ألم يكتنفهُ، على العتبة، عند المدخل، ذلك الشعور الغامر بالاطمئنان والنعومة والرقّة، ذلك الشعور الذي أثارته فوميكو فيه؟ ألا يدرك أن مصدر ذلك الانفعال ليس، في المقام الأوّل، إلّا مقدار الشبه بين الوجهين، والملمح الذي أبصره في وجه فوميكو المدوّر فذكّره مباشرة بوجه أمّها؟

كانت خطيئة السيّدة أوتا أنّها رأت في كيكوجي صورة والده. ولكنّ كيكوجي أيضاً لم يرَ في الابنة إلاّ صورة أمّها! . . فأيّ حلقة مفرغة تنغلق عليهم جميعاً؟ وأي لعنة هي تلك التي حلّت عليهم؟ غير أنّ كيكوجي أحسّ. بجاذبٍ طبيعي نحوها، ولا شيء في داخله استطاع أن يقاوم مثل هذا الميل.

كانت نظراته لا تفارق ذلك الفم الصغير الذي أيبسته الأشجان وثلّمته، وتلك الشفة السفلى اللحيمة اللذيذة: ذلك النتوء الرقيق! وكان يقول في سرّه إنّه لن يقدر بالتأكيد على إثارة خصومتها جدّياً. فماذا عساه يفعل كي ينجح في استعدائها؟

ـ قد تكون أمّك قد ضاقت بالحياة لأنّها كانت مرهفة جدّاً ورقيقة جداً، قال لها بوحاً. كم كدّرتها بقسوتي وكم عذّبتها بهواجسي الأخلاقية الخاصة، إذ حمّلتها وزر مخاوفي الشخصيّة! أنا خجل ومتردّد، ولست سوى نذلٍ أراد. . .

ـ لا، أمي وحدها كانت مذنبة ولا علاقة لك بشيء، قالت فوميكو جازمة. لحظات ضعفها واستسلامها. . . ذلك أنني لا أصدّق حتّى الآن أنها مع والدك. . . ومعك. . . لا! كلّ هذا لم يكن من طبيعتها بالفعل، لم يكن من طبعها الفعلي.

فيما كانت فوميكو تتكلّم بشيءٍ من التردّد، تورّد خدّاها من جديد وبدا اللون الذي بات يلهبُ وجنتيها أكثر احمراراً من تلك الحمرة الباهتة التي اعترتها من قبل.

أطرقت وأغضت كأنّها تتجنّب أن تلتقي عيناها بنظرة كيكوجي. ولكنها تابعت كلامها بجهد كبير:

ـ ربّما لهذا السبب رحتُ أفكّر فيها، غداة وفاتها، ورأيت أنها أكثر نقاءً وجمالاً. أو الأحرى، لا، لستُ أنا من جعل صورتها أقرب إلى المثال: بل كأنّ صورة أمي تلك كانت تتشكل من تلقائها أكثر نقاءً وجمالاً.

ـ هكذا تحدث الأمور دائماً حين نفتقد من نحبّ، قال كيكوجي.

ـ ولكنني أعتقد بأنّها رحلت بسبب أفضل ما فيها ولأنها عاجزة عن احتمال أسوأ ما صنعته.

ـ لا أرى أن ما فعلته كان مقيتاً إلى هذا الحدّ. لا، لا أصدّق!

ـ تلك اللهفة فيها، ذلك الألم... كم كان يعذّبها كلُّ هذا...

سكتت فوميكو وامتلأت عيناها بالـدموع. وظنّ كيكـوجي أنّها تحاول أن تصف له مقدار حبّ أمها له.

ـ الموتى ينتمون بكلّيتهم إلى أعمقِ ما في قلوبنا من مشاعر، أجـاب. ونستطيـع أن نسكنهم إيّاها كأغلى ما فيها، أليس صحيحاً ما أقول؟

ـ ولكنْ يبقى أنّهم رحلوا بـاكراً! تـابع بحسـرةٍ: كأنّـه يلمّـح إلى أن المقصـود بكلامه والدا كلٍّ منهما.

ـ ونحن، أحدنا أو الآخر، كلانـا ابن جيد، أردف كيكـوجي قائـلاً وقد أيقن فجأةً في استرساله، كم كان الأمر ليكـون أسوأ أيضـاً، وأشدَّ فـظاعة وهـولاً لو أنّ السيّدة أوتا لم ترزق بهذه الابنة. فقال لها كأنّه يعترف رغماً عنه:

ـ لقد أخبرتني أمّك عن تفانيك الرائع في العناية بأبي حين كنتِ صغيرة.

ما قيل قد قيل الآن، ولم يبق أمام كيكوجي إلّا أن يأمل بأن يكون كلامه معبّـراً عمّا يريـد قولـه بتلقائيـة. فربّمـا استطاع بـذلك أن يستـدرجها للتحـدّث عن أبيه، ويذكّرها بالأيام التي كان والده يأتي فيها لزيارتهم ولقاء السيّدة أوتا، صديقته.

إلّا أن فوميكو قاطعت كلامه، فجأةً بأن عاجلت إلى القول:

ـ أعذرني، أرجوك! كان ذلك بسبب والدتي التي كنت أشفق لحالها... كانت تعاني الكثير في تلك الأيام وكنتُ بدأتُ أشعر بالخوف من فقدانها.

حـاولت أن تكتم نحيبها وانحنتْ إلى الأمـام وقـد أسنـدت كفّيها إلى الحصير. ولاحظ كيكوجي اهتزاز كتفيها بعنف فيما كانت الدموع تملأ عينيها.

عندها فقط لاحظ أنّها حافية القدمين إذ فاجأتهـا زيارتـه غير المتـوقّعة. وكـانت محاولاتها الدؤوبة لإخفاء قدميها الحافيتـين تضاعفُ من انحنـائها في جلستها، وكان شعرها مُسبلاً يتدلّى على الحصير، أمـامها، ويكـاد يلامس الكـوب الأحمر الـذي لم تمسّه شفتاها بعد.

ثمّ نهضت وغادرت الصالة وقد أخفت وجهها بين يديها.

انتظر كيكوجي بعض الوقت ثمّ نهض، وحين رأى أنّها لم تعُد، انتقل إلى ردهة المدخل حيث سأل بصوتٍ عالٍ:

ـ اتسمحين لي بالمغادرة الآن، لقد أطلت المكوث لهذا اليوم؟

عادت فوميكو وظهرت فجأةً أمامه، وقدّمت له رزمة ملفوفة بفوطة مزركشة:

ـ هلّا أخذته معك، أرجوك، واغفر لي إذا كنتُ أثقل عليك.

ـ ولكنْ ما هذا؟

ـ إنّه إناء الشينو.

كيف استطاعت أن تتدبّر الأمر بمثل هذه السرعة؟ تساءل كيكوجي بدهشةٍ ظاهرة: كان عليها أن تنزع الزهور من الإناء وتفرغه من المياه ثمّ تغسله وتنشفه وتعيده إلى علبته ثمّ تربط العلبة بشريط وتغلّفها بالفوطة... إنها فعلاً مسألة تدبير وبراعة!

ـ هل تصرّين فعلاً على إعطائي إيّاه اليوم بالذات؟ كان فيها ورود...

ـ أرجوك، لو سمحت!

وبينما مكث يتساءل عمّا إذا كان ألم الحداد هو الذي دفعها إلى توضيب هديّة الوداع بمثل هذه السرعة، تناول كيكوجي الرزمة منها بحركة احتفالية قائلاً:

ـ أقبل هديّتك بامتنان عميق.

ـ كان ينبغي أن أوصل هذا الإناء بنفسي إلى باب دارك، قالت، ولكنْ للأسف يبدو الأمر مستحيلاً.

ـ لماذا؟

تركت فوميكو سؤاله بلا جواب.

على العتبة وبعد أن استأذنها كيكوجي في المغادرة وهمّ بالابتعاد، خاطبته على عَجَل وقالت:

ـ مرّةً أخرى أشكرك على زيارتك. وأرجو منك أن تكفّ عن التفكير في أمّي. إعقد قرانك بسرعة!

ـ ماذا؟ ماذا تقولين؟

التفت كيكوجي نحوها، ولكنْ عبثاً. لبثت هناك مُطرقةً، بلا حراك.

III

حين عاد كيكوجي إلى داره وضع باقةَ ورود مماثلة في إناء الشينو: أزهار بيضاء وقرنفل زهري باهت.

ولأوّل مرّة منذ وفاة السيّدة أوتا، شعر بأنّه يُحبّها فعلاً. وما زاد من قناعته هذه هو أنّ هذا الحب يجد، على نحو ما، ما يرسّخه في عمق أعماقه من خلال فوميكو، من خلال ابنة المرأة الميتة.

ونهار الأحد اتصل بها هاتفياً.

ـ أما زلتِ وحيدة في البيت؟

ـ أجل. ولكني بدأت أشعر فعلاً بوطأة العزلة.

ـ ينبغي ألاّ تمكثي على هذه الحال.

ـ أعلم جيداً.

ـ حتّى عبر الهاتف لديّ انطباع بأنه يمكن سماع الصمت الذي يسود ذلك المنزل المقفر.

سمعها تضحك بوهن.

ـ يجب أن تفعلي شيئاً بهذا الشأن. لماذا لا تدعين أصدقاءك للمجيء لزيارتك؟

ـ يجب أن أفعل، ولكنّي أخشى دائماً أن ينتبه أحدهم إلى أمر ما بخصوص والدتي.

وإذ حارَ جواباً سألها كيكوجي:

ـ ما دمتِ بمفردك في المنزل، فلماذا إذن لا تستطيعين الخروج أنتِ بمفردك؟

ـ بلى أستطيع. ليس عليّ سوى أن أقفل الأبواب وأخرج.

ـ إذن لماذا لا تأتين لزيارتي ذات يوم؟

ـ شكراً لك، سأفكّر في الأمر.

ـ وصحّتك؟

ـ بخير، شكراً. فقط أعاني من بعض النحول.

ـ أتنامين على الأقلّ؟

ـ لا، تقريباً لا أنام.

ـ آه! إنّها علامة سيئة!

ـ لقد صمّمت على بيع المنزل قريباً والانتقال للسكن عند إحدى الصديقات.

ـ ستبيعين؟

ـ أجل.

ـ منزلك، تريدين بيعه؟

ـ ألا ترى معي أنّه أفضل الحلول؟

ـ لست أدري. فأنا أيضاً أفكر في بيع منزلي.

مكثت فوميكو صامتة.

ـ آللو! أما زلتِ هنا؟ ليس بإمكاننا فعلاً أن نناقش هذه الأمور هاتفيّاً. وما دام النهار نهارَ أحد، فلماذا لا تأتين إلى هنا؟ فَمن جهتي أنا لن أغادر المنزل.

ـ حقّاً؟ . . .

ـ لقد وضعتُ في إنائك الشينو باقة ورد على الطريقة الغربيـة. ولكن إذا جئت فبالإمكان استخدامه كميزوساشي.

ـ مجلس شاي، تقصد؟

ـ لا، ليس بـالضرورة. ولكن يبقى مؤسفـاً أن لا يستعيـد الشينو، ولـو لمـرّة واحدة، وجهة استخدامه الفعلية كابريق ماء. فقـطع طقم الشاي تفقـد في النهايـة كلّ قيمتها ومعناها إن لم يُستحسن جمالها ويُبرزُ إلى جانب قطعٍ أخرى حيث الجمال لا يكون إلاّ تناسقاً وانسجاماً.

ـ كـلّ المسألـة، كما تعلم، هي أنني مـا زلت اليـوم أقـلّ استعـداداً لمواجهـة الآخرين مما كنتُ عليه في المرّة السابقة. ولا أجرؤ على الخروج هكذا. . .

ـ وما الأهمية في ذلك؟ لن يكون هنا أحدٌ سواي ليراك!

ـ ومع ذلك. . . لا، أعذرني.

ـ إنّه لأمر مؤسف! أحقاً لا تريدين؟

ـ إلى اللقاء. . .

ـ إلى لقاء قريب إذن. واعتني بنفسك جيّداً. يبدو أنّ لديّ زائراً. إلى اللقاء.

كان الزائرُ شيكاكو.

قطّب كيكوجي خشية أن تكون سمعت شيئاً من حديثه الهاتفي.

ـ يا له من حرٍّ خانق! صباح الخير. أخيراً حلّ الطقس الجميل الـذي انتظرنـاه طويلاً، فانتهزت الفرصة لزيارتك.

وفي غمرة انهماكها بالكلام لم يفت شيكاكو أن تلمح إناء الشينو.

ـ في مثل هذا الفصل أحظى ببعض الراحة من دروس الشاي. فقط أردت أن أستأذنك في المكوث في التشاشيتسو لبعض الوقت.

قدّمت لكيكوجي علبة حلويات مع مروحة من ورق مثبتة فوقها.

ـ أحسب أن رائحة العفونة تملأ جناح الشاي من جديد.

ـ على الأرجح.

ـ أليس إناء الشينو هذا خاصّة السيّدة أوتا؟ هلّا سمحت؟

كـانت تتحدّث بـلا اكتـراث وقـد اقتربت من التـوكونـوما لتقف أمـام الورود. وحين بسطت كفّيها على الحصير مُطرقـةً، رأى كيكوجي كتفيهـا القويتـين الناتئتـين وقـد برزت عـظامهـا الغليـظة. وبـدت شيكـاكـو في عينيـه كحيـوان خبيث ينفث سمومه.

ـ أهي إحدى صفقاتك؟

ـ لا، إنّها هديّة.

ـ هـديّة؟ آه! إنّها هـديّة غـير عاديّـة! أحسبُ أنّها تـذكـار من الفقيـدة، أليس كذلك؟

نهضت شيكاكو واستدارت نحو كيكوجي.

ـ ألا تعتقـد بأنّ تحفـاً ثمينـة من هـذا النـوع لا تجـوز حيـازتهـا إلاّ من طـريق الشراء؟ والآنسة أوتا قدّمتها لـك هديـةً هكذا ببسـاطة؟ وأنت ألم تبـدِ أي تردّد في قبولها؟ لو كنتُ في حالتك لوجدت أنّ الأمر مبالغ فيه، بل لوجدته مثيراً للريبة. . .

ـ لم يفُت بعدُ أوانُ التفكير في هذا الأمر.

ـ أجـل، عليك أن تفكّـر جدّيـاً بهذا الأمـر. يوجـد قطع كثـيرة هنا كـانت في الأصـل ضمن مجموعـة السيّـد أوتـا. إلاّ أن والدك اشـتراها كلّهـا على الـرغم من علاقته بالسيّدة أوتا.

ـ أنا لا أطيق الكلام على هذه الأمور بهذه الطريقة.

ـ حسناً، حسناً جداً، قالت متخلّيةً عن إصرارها.

انسحبت شيكاكو. سمعها كيكوجي تتحدّث إلى الخادمة في حجرة أخـرى، ثمّ عادت وقد وضعت مئزراً.

ـ لقد توفيت السيّدة أوتا منتحـرة، أليس كذلـك؟ سألت فجـأةً ممّا أثـار دهشة كيكوجي.

ـ لا، أبداً!

ـ لا؟ من جهتي لم أشكّ لحظة واحدة في أنّها ماتت انتحاراً. لقد كان لديها دائماً ما يُثير القلق، ما يصعب فهمه لشدّة استغلاقه.

وبينما كانت تتفوّه بهذه العبارات رمقت كيكوجي بنظرات فاحصة.

ـ حتّى والدك كان يرى أنّها امرأة يستحيل فهمها. وغالباً ما كان يردّد هذا القول. ولكنْ للنساء أساليبهن في فهم مثل هذه الأمور: فقد كانت تتمتّع بشيء ما غير محدّد من مظاهر البراءة، مظهر طفلة لا يتناسب مع عمرها الفعلي، رقّة دَبقة. . .

ـ كفّي عن الكلام، أرجوك! إنّ اغتياب الموتى أمرٌ مقزِّز!

ـ من دون شكّ، إلاّ أنّ هذا لا يُلغي الحقيقة، فهذه المرأة الميتة تشكل عقبة في طريق زواجك. يكفي ما سبّبته لأبيك من متاعب في حياته.

المتاعب، الأحرى أن تقول شيكاكو إنّها سبّبتها لنفسها! فكّر كيكوجي في سرّه. فالحقيقة أنّ السيّدة أوتا لم تفسد عليها شيئاً من حياتها ما دامت العلاقة التي جمعتها بوالده لم تكن سوى مغامرة عابرة. فما من سبب فعلي يبرّر ضغينة شيكاكو. أمّا الغيرة القاتلة حيال هذه المرأة، فما الذي لا يبرّرها، وهي التي استطاعت أن تستأثر بحبّ والده حتّى آخر يوم في حياته!

ـ أنت لا تزال شاباً يا سيّد ميتاني، وليس بإمكانك أن تفهم هذا النوع من النساء! إن موتها كان بمثابة خلاص لك صدّقني!

أشاح كيكوجي بوجهه عنها دون أن يجيب.

ـ وصَدِّق أنني ما كنت لأقبل بأن تمنع زواجك، أضافت شيكاكو. هذا فضلاً عن أنّها أدركت بنفسها، أخيراً، الشرور التي تعشش في كيانها! والأرجح أنها توصّلت إلى قتل نفسها حين اعتملت شرورها كلّها في رأسها. فلا بدّ أنّ ما فعلته كان لقناعةٍ منها، على ما فُطرت عليه، أنّها سيكون بإمكانها، بهذه الطريقة، أن تلحق بأبيك إلى العالم الآخر؛ صدِّقني فأنا أعرف جيّداً ما أقول. .

انتابت كيكوجي قشعريرة شلّت أطرافه.

وبعد أن نزلت شيكاكو إلى الحديقة استدارت لتقول موضحةً:

- سأذهب الآن إلى جناح الشاي، فقد أنعم بالهدوء هناك.

مكث كيكوجي بلا حراك يُطيل التأمّل في الورود، بياض الأزهار وزهري القرنفل الشاحب ظهرا كأنّهما يمتزجان ويذوبان في لون الشينو الناعم.

كان يرى قُبالةَ عينيه صورة فوميكو، في ذروة وحدتها: خيالٌ متهالك على الأرض، ينتحبُ من أعماق وحدته.

الكتاب الرابع

أحمر شفاه الوالدة

I

كان كيكوجي يُلازم غرفته منذ بضعة أيّام. ولكنه في طريق عودته من حجرة الاغتسال في ذلك الصباح، رأى خادمته العجوز تضع لبلاباً(*) صباحياً طريّاً في إناء معدني معلّق على الحائط، فقال لها إنّه سيغادر الفراش اليوم.

وعلى الرغم من ذلك عاد إلى فراشه واستلقى مسنداً رأسه إلى الوسادة، وراح يتأمّل الوردة المعلّقة عند زاوية التوكونوما.

نادته الخادمة من الحجرة المجاورة لتخبره أنها وجدت القمعيّات الأرجوانية مُزهرةً في الحديقة.

- ألن تذهب إلى المكتب اليوم؟ سألته.

- لا. سأغادر الفراش اليوم، ولكنّي سأمنح نفسي يوماً آخر من الراحة.

كانت النزلة الوافدة التي ألمّت به مصحوبةً بصداعٍ حاد قد اضطرّته إلى ترك عمله وملازمة الفراش لعدّة أيّام.

- أين عثرت على طربون اللبلاب هذا؟ سأل الخادمة العجوز.

- هناك، عند طرف الحديقة وسط نبات الميوغا(**) كانت وحيدة في المسكبة، وقد التفّت عَطَفها(***) على ساق الميوغا.

(*) هو نبت تتفتح براعمه عند بزوغ الشمس ثمّ تطبق في غضون ساعة. رمز بليغ للجمال وما هو سريع الزوال.

(**) رتبة من زنابق الوادي الكبيرة تؤكل نبوتها.

(***) العَطَف، الواحدة «عطفة»: نبت يتلوّى على الشجر. (...) أطراف الكرم المتعلّقة منه: اللبلاب.

كـان واضحـاً أنّها نبتـة لبـلاب بـرّي بـبرعمهـا المـائـل في شحـوب إلى الأزرق البنفسجي ووريقـاتها الهشّـة وعَطَفَهـا الـدقيقـة والـطريّـة. كـانت زهـرة اللبـلاب المستوحدة وهذه الأماليد الطريّة التي تتدلّى من وعاء قديم بهتَ طلاؤه الأحمر القـاني مع الوقت، تشيع مناخاً محبّباً من الطراوة.

فمنذ أن عملت في خدمـة والد كيكـوجي كانت الخـادمة العجـوز تعرف جيّـداً كيف تبتكر مثل هذه السوانح المُبهجة. وكان الوعاء الذي اختارته لتضع فيه غصن اللبلاب قطعة قديمة وتحملُ توقيعاً تحْتْ الأيّـام نصفه. وعـلى القماش الـذي يغطيـه كُتِبَ اسم سوتان. وإذا كانت الكتابة صحيحة فهذا يعني أنّ صنعه يعود إلى ثلاثـة قرون خلت.

لم يكن كيكوجي يفوق خادمته خبرةً بأنـواع الورود التي ينبغي أن تـزيّن مجالس الشاي، ولكنّ حدسـه كان يؤكـد له بـأنّ طربـون اللبلاب الصبـاحي هذا ينسجم تماماً والتلذّذ بطعم الشاي الصباحي.

برعمٌ يتفتّح، لكنّه سريع الزوال ويكاد لا يعمّر لما بعد ساعات الصباح، وُضع هكذا في وعاءٍ تناقلته الأيدي منذ أكثر من ثلاثـة قرون. . . ذلـك هو حـدّ التنافـر الذي استأثر بأفكار كيكوجي بينما كانت نظراتهُ تتريّث في تأمّل طويل وعميق لزينـة التوكونوما.

كان في ذلك المشهد شيءٌ ما يُحيله التنافر الظاهر إلى جمالٍ خفي وخارق، مثلاً، كان يقولُ في سرّه، كالباقة المنسقة على الطريقة الغربيـة والموضـوعة في إنـاء الشينو الذي يعود، هو أيضاً، إلى ثلاثة قرون من الزمن.

ولكنْ إلى متى سيصمد هذا الطربون البرّي الذي يكاد يكون، لهشـاشته، غـير قابل للتنسيق؟ وفي أعماقه كان كيكوجي يستشعر قلقاً حيال هذا القدْر من الهشاشة في نعمى التفتّح.

في أثناء تناوله طعام الفطور خاطب الخادمة قائلاً:

– كنتُ أخشى أن أشهـد ذبول الـزهرة أمـام عينيّ. ولكنْ لا: فهي لا تـزال في نضارتها!

ـ بلى، بالفعل.

ولوهلة فكّر من جديد في الرغبة التي انتابته بـأن يُنسِّق باقـةً من الفوانيـا في إناء الشينو الذي أهدته إيّاه فوميكو وإن كان موسم الفوانيا قد فـات بالفعـل. وقال في سرّه، إنّه ربّما كان الأمر لا يـزال ممكناً لـو أنّه نفّـذ فكرتـه فوراً: ولا شكّ أنّه كان يستطيع أن يعـثر على بعض الـورود التي تدوم طـويلاً حينـذاك ثمّ خاطب الخـادمة وقال لها:

ـ كنت نسيتُ تماماً وجود هذا الوعاء في النزل. إنّه فعـلاً لأمر جيّـد أن تعثري عليها.

ـ بلى، أليس جيّداً؟

ـ ألأنّك رأيت والدي من قبل، يُنسِّق فيه طرابين اللبلاب؟

ـ لا يا سيّدي، ولكنّي حسبتُ أنها ستكون ملائمة لأنّها نباتات ذات عَطَف.

ـ عَطَف؟ ماذا تقصدين بذلك؟ قال كيكوجي مُداعباً وقد فاجأته هذه الإجابة.

عـلى الأثر، أراد أن ينصرف إلى قـراءة الصحيفـة، ولكنّـه، إذ عـاودتـه نـوبـة الصداع، استلقى على حصر الصالة بعـد أن سأل إذا كـانت الخادمـة قد أنجـزت ترتيب غرفته، وإذا كان في استطاعته العودة إلى الفراش.

ـ لحظات قليلة وأكون انتهيت من أعمال التنظيف، قالت الخادمـة وقد هـرعت إلى مشاغلها وهي تمسح يديها بعد أن أنجزت غسل الأطباق.

وبعد ذلك بقليل عاد كيكوجي إلى غرفته ولاحظ أنّ غصن اللبلاب قـد اختفى عن التـوكونـوما وكـذلك الـوعاء المعـدني الأحمر. أتكـون الخادمـة هي التي أخفتها لتجنّبه منظر زهرة ذابلة؟ ومع ذلك كان على كيكوجي، الـذي سها في الأثنـاء عن فكرة «النباتات ذات العَطَف» الغريبة، الإقرار بأنّ إخـلاصها لم يفقـد ما يميّـزه من رهافةِ السلوك الذي كان والده يشيعه في مناخ حياتهم المنزليّة.

وعلى الرغم من ذلك كان إناء الشينو، كما بدا في وسط التوكونوما، كأنّه متروكٌ لوحدته. وقال في سرّه إنّه لو قيض لفوميكو أن تراه على هـذه الحال لاعتقـدت بلا

ريب أنّه يُهمل هديّتها!

وتذكّر كيكوجي أنّه في اليوم نفسه الذي أهدته فيه إبريق الماء هذا، كان همّه الوحيد: أن يضع فيه باقة منسقة من الأزهار البيضاء والقرنفل الزهري الشاحب... تماماً كما فعلت فوميكو لتزيين مذبح السيّدة أوتا... بالزهور والقرنفل التي أرسلها بنفسه لذكرى اليوم السابع. وعند فراغه من زيارة التعازي في دار فوميكو، قصد للتوّ متجر الورود إيّاه وانتقى منها باقة مماثلة. ولكنّه منذ ذلك اليوم لم يمسّ إناء الشينو، وقد حال بين الإناء وبينه انفعالٌ غريب كان يُثير الاضطراب في قلبه ويضاعف خفقانه.

وعندما يسير في الشارع، مثلاً، ألا تلفته، بغير قصدٍ منه، قامات النساء اللواتي، إذ يراهنّ من الخلف، يحسب أنّهن في سنّ السيّدة أوتا؟ وحين يتنبّه فعلاً إلى سلوكه يؤنب نفسه بعنف كأنّه ارتكب معصية. هذا فضلاً عن أنّ اقترابه من تلك الأطياف لا يني يؤكّد بأن الشبه المنشود بين السيّدة أوتا وبينها لا وجود له فعلاً، باستثناء وحيد ربما لا يتعدّى اكتناز الردفين... وعندئذٍ تنتابه من جديد ارتعاشة رغبة وتجذبه، مهما فعل، نحو ثمالةٍ نشوى لا تلبث أن تغرقه، كما في يقظة مفاجئة، في أهوال الإثم الذي ارتكبه أو الجريمة التي يحسب أنه على وشك ارتكابها.

- مَن عَسَاه يستدرجني إلى هذه اللعبة الرهيبة؟ كان يقول في سرّه. أي مسخ، إذن، يجعلني مذنباً؟ إلاّ أنّه كان يحاول عبثاً، إذ يخضّ كيانه على هذا النحو، أن يطرد الشيطان منه أو يزجر الصور التي كانت تستبيح مخيلته. وحيال عبارات الذهول، والاستفهام تلك، كان الجواب لا يصدر إلاّ عن حنينه للحبيبة، ورغبته في أن يرى عشيقته الراحلة مرّة أخرى. ذلك أنّ تلك الصور كانت تزداد سطوعاً وطغياناً. وكان كيكوجي يخشى على خلاص روحه إنْ أخفق في النجاة من تلك الرؤى التي تجعل من حضور الجسم الأنثوي للمرأة الميتة - برغم كونه غير حقيقي - على هذا القدر من الحسيّة والفتنة.

أهي مشاعر الندم، في أعماقه، التي كانت تُسبّب هذه الملذّات الكئيبة وتؤجّجها؟

نهض أخيراً من فراشه وذهب لرفع الإناء عن التوكونوما وإعـادته، بعنـاية، إلى علبته. وبعد ذلك عاد إلى فراشه وتمدّد وقد أدار وجهه في اتجاه الحديقة.

كان كيكوجي يستغرقُ في تأمّل الحديقة حين سُمع دويّ الرعد. هبّت العاصفة في البعيـد، إلاّ أنها كانت تشتـدّ وتقترب بسرعـة، البرقُ يـلي البرق، والـرعد يـلي الرعد.

وما لبث كيكوجي أن رأى الـبروقَ تومضُ بـين أغصان الحـديقة مُـبْرزةً أخيلتها القائمة فوق خلفية من الضياء الباهر. وعندما انهمر المطر، بدا، في الـوقت نفسه، أنّ العاصفة تبتعد.

راح المطر يهطل بغزارة حتّى أنّ رَشَاش الأرض الموحلة كان يُلطّخ حجارة الممرّ.

حوّل كيكوجي عينيه عن هذا المشهد، ونهض مجدّداً واتجه نحو الهـاتف. اتّصل بمنزل فوميكو. فأجابه شخص ما بأنّها انتقلت منه نهائياً.

ـ ماذا؟ صرخ لدهشته.

ثمّ أيقن أنّها لا بدّ أن تكون بـاعت البيت، فاعتـذر وسأل إذا كـان بإمكـانه أن يحصل على عنوانها الجديد.

ـ هلاّ انتظرت قليلاً، سأتحقق من هذا الأمر، أجابه، على طرف الخط الآخر، صوتٌ ليس بالتأكيد، سوى صوت خادمة.

تناولت الخادمة سمّاعة الهاتف من جديد وأملت عليه العنوان، على مَهَل، كلمة كلمة، كأنّها، هي نفسها، تقرأ كلماتٍ مُدوَّنة على ورقـة. «منزل السيّـد توزاكي» دوّن كيكوجي وإلى جانبه رقم الهاتف.

طلب هذا الرقم دون تردّد.

فسمع صوت فوميكو على الفور واضحاً وشبه مبتهج:

ـ أعذرني إذا كنت أبطأت عليك. فوميكو معك.

ـ أنا ميتاني. صباح الخير. لقد اتّصلت لتوّي على رقمك القديم.

ـ أوه! أنا آسفة، قالت وهي تُخفضُ نبرة صوتها بشكل ملحوظ كما كانت تفعل أمّها من قبل.

ـ منذ متى انتقلت إلى عنوانك الجديد؟ لم تخبريني بذلك من قبل!

ـ أجل، كنت أودّ. . . أنا أقيم في بيت إحدى صديقاتي منذ بعض الوقت. لقد بعت الدار.

ـ آه! حقّاً؟

ـ لطالما سألت نفسي إذا كان ينبغي أن أطلعك على الأمر. في البداية لم أرد أن أخبرك حتّى أنني حسبتُ أنّه لا ينبغي أن أفعل. ولكنْ، في الآونة الأخيرة، رحت ألوم نفسي لكتماني الخبر. أحسست بتأنيب الضمير.

ـ بالطبع: كان ينبغي أن تخبريني، فهل يُعقل ألاّ تفعلي!

ـ حقّاً؟ أهذا ما تراه، أنت أيضاً؟

وإذ شعر بانتعاش وكأنّه بُعث من جديد وغسِلَ قلبُه ممّا يكدّره، عَجِبَ كيكوجي لما قد تثيره فيه مجرّد مكالمة هاتفية. وقال لها:

ـ كلّما نظرت إلى إناء الشينو الذي أهديتني إيّاه أشعر برغبةٍ في أن أراك.

ـ حقّاً؟ أوتدري، يوجد لديّ قطعة شينو أخرى: عبارة عن كوب مستطيل وضيّق. وفكّرت أن أعطيك إيّاه مع الميزوساشي. ولكنّ أمي كانت تستعمله باستمرار فبقي أثرٌ من أحمر شفاهها على حافته ويبدو أنّه لن يزول.

ـ أحمر شفاه؟ أيُعقل هذا؟

ـ لقد دلّتني أمي بنفسها على موضع العلامة.

ـ ولكن كيف لأحمر شفاه أن يترك أثراً على الخزف؟

ـ ليس هذا ما عنيته حرفيّاً. يوجد على حافة الشينو لطخة زنجار بلونٍ أمغر زهري. وحين كانت أمي تريد أن تغسل أثر أحمر الشفاه عنه كان يتراءى لها أنّه لا

يزول. وأنا نفسي، حين تفحصت الكوب بعد وفاتها حسبتُ أنني رأيتُ على الحافة أثراً خفيفاً أحمر اللون.

هل كانت فوميكو غافلةً تماماً عن وقع هذه الأقوال في نفس كيكوجي؟

حاول جاهداً، وقد أربكه هذا الحديث وجعله عاجزاً عن متابعته، أن يحدّثها بأمور أخرى.

ـ لقد هبّت، هنا، عاصفة هوجاء، فهل تمطر بناحيتكم؟

ـ بل تمطر بغزارة. فمنذ قليل شعرت فعلاً بالخوف لقصف الرعود وومض البروق. كنت أرتعد خوفاً.

ـ سوف ترطّب المطرةُ الجوّ. إنّها مفيدة. لقد لازمت المنزل طوال الأيّام الأخيرة، كما أني لن أخرج اليوم أيضاً. ألا تودّين فعلاً أن تمرّي بداري في زيارة عابرة؟

ـ أشكرك، فأنا كنتُ مصمّمة على المجيء لزيارتك، ولكن ليس قبل أن أجد عملاً. ذلك أني ما زلت أبحث عن عمل...

كان كيكوجي يهمّ بالردّ فلم تُفسح له في المجال وسارعت إلى إنهاء المكالمة بقولها:

ـ إنّه لمن دواعي سروري الكبير أن آتي لزيارتك. ولطف منك أن تتصل بي هاتفيّاً، لقد سررتُ كثيراً بمكالمتك. في الحقيقة اعترف لك بأنني كنتُ مقتنعة بلا جدوى أن نلتقي مجدّداً. ولكنْ لِمَ لا برغم كلّ شيء؟...

انتظر كيكوجي أوّلاً توقّف المطر ثمّ طلب من خادمته أن تطوي فراشه.

لقد أصابه هذا الاتصال الهاتفي الذي انتهى بموعدٍ مع الفتاة ببعض الذهول. إلاّ أنّ ما يضاعف ذهوله هو هذا الأثر الغامض الذي خلّفه عليه، كأنّ مجرّد سماع صوت الفتاة كان كافياً لتبديد ما ترسّب في أعماقه من طعم الخطيئة المرّة التي جمعته بأمّها، ولطرد الأفكار المرعبة حول موتها.

أيكونُ هذا لأنّ في صوت الفتاة ما يكفي من القوّة لحمله على الاعتقاد بأن أمّها لا تزال على قيد الحياة؟

غارقاً في أفكاره ومشوَّش الذهن، دخل كيكوجي إلى حجرة الإغتسال ليُهيِّىء نفسه. وكان يلهو خلال حلاقة ذقنه بأن يبلّل فُرشة الحلاقة بمياه المطر إذ يمدّ يده ويداعب بها وريقات أشجار الحديقة التي كانت تقطر ماءً.

بعد ذلك، أي بعد وقت الغداء بقليل، سمع خطوات شخص يقترب. فهرع إلى الباب ظنّاً منه أنّها الفتاة. فوجد كوريموتو شيكاكو.

- آه! هذه أنت؟

- يا لهذا الحرّ. جئتُ لأطمئنّ عليك. إذ انقطعت أخبارك عني منذ مدّة طويلة.

- ليست الأمور على أحسن ما يكون. فأنا متوعّكٌ بعض الشيء.

- لست على ما يرام، بالفعل. تبدو شاحباً، قالت شيكاكو وهي تتمعّن في وجهه وقد تغضّن جبينها.

فكّر كيكوجي أنّه لا بدّ أن يكون غبيّاً جدّاً لما وقع فيه من سوء تقدير! ذلك أنّ فوميكو التي ترتدي ثياباً على الطريقة الغربية لن تحدث في سيرها مثل تلك الطقطقة التي يحدثها خفّا الجيتا(*) والتي جعلته يهرع للقائها عند الباب!

- هل قصدتِ طبيب الأسنان؟ بفضله تبدين أصغر سنّاً...

- أجل، ففي موسم الأمطار تقلّ مشاغلي فانتهزت الفرصة لاستبدال أسناني. ما زالت الأسنان الجديدة تبدو منفّرة بعض الشيء لأنها بيضاء أكثر مما ينبغي. ولكنْ لا أهمّيّة لذلك، لأنّها ستكتسب اللون الطبيعي مع الوقت.

تقدّمت شيكاكو إلى داخل غرفة كيكوجي، وأوّل ما فعلته كان أن رمقت

(*) صندل خشبيّ يُرتدى مع الزيّ الياباني التقليدي.

التوكونوما بنظراتٍ فاحصة.

ـ الفراغ المحض، إنّه مُريح، ألا توافقني الرأي؟ قالت مخاطبةً كيكوجي.

ـ إنّ موسم الأمطار ليس فعلاً بالموسم الذي يُتيح الاختيار بين أشكال كثيرة للزينة المنسّقة. ولكنْ بإمكانك، على الأقلّ، أن تزيّن التوكونوما بوردةٍ أو اثنتين...

ثمّ قطعت حديثها واستدارت فجأة:

ـ أين وضعت إناء الآنسة أوتا؟ سألته.

مكث كيكوجي صامتاً.

ـ من الأفضل أن تعيده إليها، صدّقني.

ـ هذا لا يعني أحداً سواي.

ـ قد لا يكون الأمر فعلاً كما تحسب.

ـ بأية حال، هذا الأمر لا يعنيك أنت بالذات!

ـ ربّما لا، قالت ضاحكةً فبدت أسنانها المستعارة البيضاء. وإذا كنتُ أتيتُ اليوم، فلكي أحذّرك.

قالت هذا وقد بسطت ذراعيها مُباعدةً ما بين يديها بحركةِ ساحر رقّاء، وقالت بنبرة دعاء مفخّم ومؤثر.

ـ إليك عني أيّها الشيطان اللعين! أنا أطردك من هذا المكان!

ـ من شأن كلامك هذا أن يُخيفني، قالا كيكوجي بلهجةٍ ساخرة.

ـ أنا أبذل ما بوسعي لإتمام زواجك، وعلى كلّ حال، إسمح لي، بصفتي الوسيط، أن أقول لك...

ـ إذا كنت ستتكلمين على الآنسة إينامورا، قال كيكوجي مقاطعاً، فأنا أشكرك على اهتمامك، ولكنْ لا تتعبي نفسك.

- إسمع، إسمعني جيّداً، لا تتصرّف بهذا الشأن كطفل فترفض زوجة مناسبة لمجرّد نفورك من الوسيط! يقتصر دوري على أن أكون جسراً بين الضفّتين، وفي استطاعتك أن تدوس الجسر ما تشاء. . . أو تعلم أن والدك ما كان لِيُبدي هذا الحذر: لقد عرف دائماً كيف يستغلّ قدراتي.

ردّ كيكوجي بحركة امتعاض.

وكعادتها حين تتكلّم بحرارة واندفاع، كانت شيكاكو ترفع كتفيها وتكورهما إلى الأمام:

- يجب أن تعلم أنني لست من طينة النساء اللواتي يفرضن أنفسهن على الآخرين، مثيلات السيّدة أوتا. أردفت قائلة. لستُ من هذه الطينة على الاطلاق. واسمع ما أقوله لك مرّة وحيدة وأخيرة: إنّ صلتي بوالدك كانت قصيرة الأمد ولم تثمر، الأمر الذي لا يمكن إلاّ أن يسبّب لي بعض الحسرة. إلاّ أنني لم أتعمّد إثارة المتاعب والحرَج كما فعلت بعضهنّ. «في لمحِ البصر!» - وانتهى كلّ شيء. (أغضت شيكاكو). ولكنّ هذا لم يدفعني إلى الحقد على أبيك وهو نفسه لم يتردّد مرّة واحدة في اللجوء إليّ كلّما شعر بأنني قادرة على المساعدة. وكان في استطاعته أن يفعل دون أفكار مسبقة. إذ يسهل على الرجل دائماً أن يتواطأ مع امرأة ربطته بها علاقة سابقة. أمّا أنا فقد أعانتني علاقتي بأبيك على تطوير وعيي واكتسابي حكمة في الحياة، وربّما، طريقة صائبة في رؤية الأمور.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنّه الأجدر بك أن تتقبل نصائحي النابعة من تجربتي وأن تفيد من نظرتي الصائبة للأمور. فهي الطريقة الأسلم للنظر.

لم يكن كيكوجي، حيال شعوره بالمودّة الموضوعية التي يعبّر عنها كلامها، ليستبعد بعض جوانب الصحّة في أقوالها.

تناولت شيكاكو مروحةً من ثنية حزامها.

- لكي نتوصّل إلى فهمٍ جيّد لتركيب الإنسان النفساني، أردفت قائلة، ينبغي

أن يتجنّب واحدنا الانحياز إلى الذكورة المفرطة أو الأنوثة المفرطة.

ـ هه! إذن لا يكون الذكاء إذن، إلاّ ملكة لكائناتٍ بلا جنس؟

ـ لا تهزأ منّي، واعترف بـأنّه يُصبح من الأسهل فهم التركيب النفساني لكـائن ولآخر من الجنسين كلّما كان الفرقُ أقلّ بروزاً. أتعتقد مثلاً بأنّ السيّدة أوتـا كانت قادرة على الموت وهي تعلم أنّها تترك ابنتها وحيدةً في مواجهة العالم؟ ببساطـة، غير معقول! وإذا صدق حدسي الخاص فلا بدّ أنّها كـانت تخطط لأمـر ما: فقـد كانت تقول في سرّها، بموتي أترك لكيكوجي أمر العناية بـابنتي، وهكذا لن تكـون وحيدة في مواجهة العالم. . .

ـ ماذا؟ ما هذا التخريف؟ قال كيكوجي وقد أذهلته المفاجأة.

ـ بعـد تفكير عميق رأيت أنّ هـذا الاحتـمال هـو الأقـرب للصحّـة. إذ ينبغي الاعتراف بأنّ مـوتها سيشكـل عقبةً في طـريق زواجك. والمنـطق يقول إنّها بـذلك تحقق غـرضهـا. فهي لم تمت، هكـذا ببسـاطـة، كـما يـذوي الآخـرون في نهايــة أعمارهم. لا. كان موتها يُخفي غرضاً من أغراضها.

ـ إنها فكرة مُتسلّطة على تفكيرك! قال كيكوجي معترضاً. وتردّدينـها باستمرار!

إلاّ أنّ هذا لا يُلغي حقيقة أنّ الفكرة الثابتـة لدى شيكـاكو تجرحه في أعـماقه. كان يشعر باضطراب يُعيق حركته. ومن الخارج التمع وميض برق أجفله.

واصلت شيكاكو إلحاحها عليه بالأسئلة:

ـ لقد حدّثتها عن الآنسة إينامورا، أليس كذلك؟

إنّ مُناسبة هذا السؤال البيّنة والـواضحة أوقعتـه في حيرة. وإذ لم تسعفـه الحيلة فضّل أن يتجاهلها، ببساطة، وقال في نبرة احتجاج:

ـ أحسبُ، إن لم يُخـطىء ظنّي، أنّـك، أنت نفســك، بـادرت إلى الاتصــال بالسيّدة أوتا هاتفياً لإطلاعها على خبر خطوبتي المزعومة. والآنسة إينامورا!

ـ لقد اتصلت بها فعـلاً، ورجوتهـا بأن لا تعـرقل هـذا الزواج. وبعـد انقضاء

ساعات قليلة، في الليل، ماتت السيّدة أوتا.

ران صمت بينهما. ولكنْ بعد لحظات فقط، عادت إلى أسئلتها المقرّعة:

- كيف لك أن تعلم باتصالي بها؟ لا بدّ أنها جاءت مُتباكيةً تشكو لك مصابها...

كبّلتِ المفاجأة كيكوجي وشلّت ردود فعله.

- بالطبع، هذا ما حدث فعلاً، أليس كذلك؟ فبينما كنتُ أحدّثها هاتفياً أطلقت صرخة لم تتمالكها...

- ما يعني، في الحقيقة، أنّ الأمور جرت وكأنّك أنت القاتلة، قال كيكوجي مؤنّباً.

- ليكن! إذا كنت مُصراً: فقد تجد في هذا ما يريح ضميرك. أما أنا، فقد اعتدت من جهتي أن ألعب الأدوار الشرّيرة! كان والدك لا يتردّد في اللجوء إليّ ساعة يشاء وكأبسط ما يكون، عندما يشعر بأنّه في حاجةٍ لمن يقوم، ببرودة أعصاب، بمثل هذا الدور. وأقول لك دون أن يعني هذا رغبةً مني في العيش دائماً حسب مشيئته، إنني جئتُ إليك اليوم وفي نيّتي أن ألعب دوراً مماثلاً..

إنها تحاول أن تُفرغ كلّ ضغينتها، قال كيكوجي في سرّه: إنها تبصق كلّ السموم التي بثتها في قلبها مشاعر الغيرة والكراهية خلال سنوات طويلة من الكبت والصمت.

- لست من ينبغي أن يعرف الذي يحدث فعلاً، أردفت قائلة وقد اتّخذت ملامحها هيئة المراوغة فبدت عيناها كأنّهما أصيبتا بالحول. وليس عليّ سوى أن أدّعي الجهل بما جرى وراء الكواليس. أما أنت فلك مطلق الحقّ في أن تقول، وقد لوى الامتعاضُ فمك، إنّ المرأة العجوز التي هي أنا، تقحم نفسها في ما لا يعنيها... ولكنْ، في النهاية سأفلح في انتزاعك من أحضان هذا الشيطان وستحظى بزواج سعيد تستحقّه.

- أوه! دَعْكِ من قصة الزواج السعيد تلك! أسمعتِ؟

ـ حسناً، حسناً، سمعت، قالت راضخةً. أنا نفسي لا أرى سبباً لإقحام السيّدة أوتا في هذه المسألة. . . ثمّ قالت بلهجة أرادتها هينةً رقيقة، فقد لا تكون هذه المرأة سيئة إلى هذه الدرجة. وقد لا تكون أرادت بموتها سوى الأمل، ودون أن تفصح عنه، بأن تصبح ابنتها لك.

ـ مزيداً من الحماقات! قال كيكوجي مُتعجّباً.

ـ ولكنّ الأمور جرت على هذا النحو، صدّقني. لن تقول لي، برغم كلّ هذا، أنّ السيّدة أوتا لم تراودها أبداً فكرة تزويجك من ابنتها؟ وإن فعلت فأنت لستَ سوى حالمٍ لا رجاء منه! وإذا سلّمنا جدلاً بأنّها لم تعبّر عن هذه الأمنية بوعي منها، فالمؤكّد أنّها أغلى الأمنيات على قلبها. فهي نفسها لم تكفّ أبداً، ولو للحظة واحدة، عن التفكير في والدك، نهاراً بعد ليل، في نومها وفي يقظتها. إنّها ممسوسة، مجنونة، ولكنّها ساذجة ولطيفة إذا شئت. والمؤكّد أن ابنتها كانت تحتلّ مكانة مميّزة في أحلام يقظتها وهذياناتها. . . حتّى التضحية بنفسها في النهاية. وحين ننظر إلى الأمور نظرة موضوعية، من الخارج، تبدو لنا وكأنها كائن أصيب باللعنة، امرأة محكومة بقدرٍ مخيف. إنها دمية، أداة للشيطان الذي رمى شباكه تحت قدميك.

لاقت نظرات كيكوجي عيني شيكاكو الصغيرتين اللّامعتين برموشهما المنزوعة تحدّقان في وجهه بثبات. فما كان منه إلّا أن أغضى تلافياً لنظراتها.

لا شكّ أنّ ما أظهره من علامات الجبن أتاح لها مثل هذا الانتصار السهل، ولا يملك كيكوجي إلّا أن يلوم نفسه لهذا الضعف في طباعه. إلّا أن السبب الحقيقي لما حدث هو استهجانه لتماسك أقوالها ومنطقها، وهذا ما لم يكن يتوقّعه.

لم يخطر له من قَبْل ولو مرّة واحدة أنّ السيّدة أوتا كانت تأمل بتزويجه ابنتها! وما زال لا يصدّق. إنّها سموم تبثّها غيرة شيكاكو، هذه هي الحقيقة، لا أكثر: إنها مجرد تلفيقات مسمومة وهذيانات زعّافة تثير التقزّز كتلك البقع التي تغطي نحرها!

ومع ذلك كان لكلامها المخبول وقع الصاعقة على قلبه وتملّك الرعب كيانه.

أبإمكانه الجزم بأنّه لم يتمنّ أبداً، إلى هذا الحدّ أم ذاك، في أعماق سرّه، أن تكون

الأمور على ما وصفتها له هذه المرأة؟

فأن يحبّ إبنة المرأة التي أحبّها أمرٌ ليس في حدّ ذاته استثنائياً أو مُستهجناً. ولكنْ إذا كان كيكوجي الذي لا يزال غارقاً في ملذات عناق الأمّ ونشواته، يستسلم، مع ذلك، لما يجذبه، رغماً عنه، نحو ابنة حبيبته بالذات، فكيف السبيل للتثبّت من أنّ انجرافه هذا ليس من فعل بعض القوى الشيطانية؟

حتّى كيانه كان يبدو له مختلفاً كلّ الاختلاف عمّا كان عليه في السابق، وكأنّ أعمق ما في طبعه قد تبدّل منذ اليوم الذي التقى فيه السيّدة أوتا. بلى، وكأن شيئاً ما في مكانٍ ما من صلب كيانه قد مسّه السحر..

كان كيكوجي غارقاً في أفكاره حين جاءت الخادمة وقالت:

ـ لقد وصلت الآنسة أوتا وطلبت مني أن أخبرك بأنّها تستطيع أن تأتي في يومٍ آخر إذا كنت تستقبل ضيوفاً آخرين.

ـ لا، لا، لتدخل! أرجو أن لا تكون غادرت على الأقل؟

ونهض كيكوجي لاستقبالها.

II

ـ صباح الخير! قـالت فوميكـو وقد مـطّت قليلاً عنقهـا الأبيض الدقـيق لـترفع عينيها نحو كيكوجي.

في التجـويف الذي يفصـلُ ما بـين العنق والصدر لمح ما يُشبهُ ظلالاً عنبـريّـة وتساءل إذا كانت الإضـاءة هي التي أوحت له بـذلك أم أنّها نحلت فعـلاً إلى هذا الحدّ.

ـ كوريموتو هنا، أسرّ كيكوجي في أذنها.

كان شديد التوجُّس إذ شَعَرَ بأنّـه مجبـرٌ عـلى إخطارهـا بالأمـر. إلاّ أنّ الأشياء كلّها تتسم بالسهولة في حضور الفتاة، وتدفّقت الكلمات تلقائياً من فمه.

أومأت فوميكو بحركة خفيفة من رأسها:

ـ لقد رأيت مظلّة أستاذة فنّ الشاي.

ـ آه! حقّاً؟ أهي تلك؟

كانت مظلّة ذات مقبض رمادي طويل رُكنت عند المدخل لصق الباب.

ـ أتفضّلين الانتظار قليلاً في التشاشيتسو؟ فهي لن تمكث طويلاً.

لم يجـد كيكوجي أفضـل من هذا الحـلّ لإنقاذ الموقف، وإن كان لا يغفـر لنفسه إبطاءه في التخلّص من شيكاكو قبل مجيء الفتاة التي كان ينتظرها.

ـ شكراً لك، ولكنّ الأمر لا يزعجني حقّـاً، قالت فوميكو موضحةً.

ـ لا يزعجك؟ إذن أدخلي، أرجوك!

دخلت وبادرت إلى تحيّة شيكاكو كأنّها تجهل مقدار كراهية هذه الأخيرة لها، كما شكرتها لزيارة التعزية.

كانت شيكاكو هناك في جلستها التقليدية كأستاذةٍ في فنّ الشاي، الكتف اليُسرى متقدمّة قليلاً على الكتف الأخرى والجذع مُتصلّب ومُستقيم، فانحنت قليلاً لتردّ التحية:

ـ لقد كانت السيّدة والدتك مثالاً في الرقّة! وعندما تغادرنا مثل هذه الكائنات الرقيقة نشعر بأنّ العالم، الذي لا تعوزه القسوة، يفقد وروده الأخيرة.

ـ لم تكن والدتي وردةً نادرة الوجود كما وصَفْتها، قالت فوميكو معترضة.

ـ ولكن أيّ ألـم أحسّت به حين رحلت وتركتك وحيدة في العالم!

مكثت فوميكو مُطرقة، بفمها المزموم بقوة، وشفتها السفلى البارزة قليلاً.

ـ ألا تفكّرين في استئناف دروس الشاي علّك تجدين هناك بعض السلوى؟

ـ أوه! لا، ليس في الوقت الحاضر...

ـ ولكنْ صدّقيني، فمن شأن هذه الدروس أن تخفّف عنك قليلاً.

ـ إنّه ترف ما عادت ظروفي الحالية تتيحه لي.

ـ ما الذي أسمعه! قالت فوميكو بشيءٍ من الدهشة وقد أومأت بيديها اللتين أبقتهما، طوال الوقت، مشبوكتين على ركبتيها. وأنا التي قصدت منزل السيّد ميتاني في مثل هذا الوقت بالذات لتبديل الأجواء، وإضفاء بعض الحياة على جناح الشاي، ولأعتقادي بأنّ الوقت قد حان بعد انقضاء موسم الأمطار.

ثمّ أضافت وهي ترمق كيكوجي بنظرة متواطئة:

ـ والآنْ، وبما أنّ الآنسة أوتا مَعَنا هنا، ما رأيك؟

ـ بماذا؟

ـ إنّها مناسبة لاستخدام إناء الشينو احتفاءً في ذكرى والدتك، قالت شيكاكو بإلحاح.

رفعت فوميكو عينيها نحوها فيما تابعت شيكاكو كلامها:

ـ باستطاعتنا أن نتحدّث عن السيّدة والدتك.

ـ لا يُسعدني كثيراً ألاّ أتمالك نفسي عن البكاء في جناح للشاي، قالت فوميكو معترضة.

ـ لا بأس، عندئذٍ تمتزج دموعنا بدموعك! إذن، اتفقنا؟ إذ كما تعلمين، يوم تدخل زوجة السيّد ميتاني إلى هذا البيت سأفقد الحقّ في الدخول إلى الجناح كما يحلو لي، وذلك برغم ما يزخر به من ذكريات حميمة.

وبعد أن أطلقت ضحكة مقتضبة، أضافت شيكاكو موضحةً كأنّها ترضخ لما هو متعارفٌ عليه من أصول اللياقة.

ـ أقصد طبعاً إذا تمّ زواج السيّد ميتاني من الآنسة إينامورا يوكيكو!

وافقت فوميكو بإشارة من رأسها وظلّ وجهها محايداً لا يشوبه انفعال. إلاّ أنّ معالم عياء ارتسمت في ملامح هذا الوجه البيضوي الذي يشبه وجه أمّها حتّى التطابق.

تدخّل كيكوجي وقال مخاطباً شيكاكو:

ـ كيف تتحدّثين عن زواجٍ لم يُبتّ شيءٌ من أمره بعد؟ ألا تعتقدين أنّك بذلك إنما تسيئين إلى سمعة الآنسة إينامورا؟

ـ كنت أقصد طبعاً: إذا وافَقْتَ! قالت شيكاكو بشيءٍ من الحدّة، وعندئذٍ خاطبت الفتاة قائلة: «ما أن تتمّ العدّة لأمرٍ سعيد حتّى تخالط بهجته وساوس الشرّ. لذلك أطلب منك يا آنستي نسيان ما سمعته الآن إلى أن تتمّ الأمور على خير ما نأمله».

ـ بالطبع، قالت فوميكو وأكّدت موافقتها بإشارة أخرى من رأسها.

عندها نادت شيكاكو على الخادمة العجوز ورافقتها إلى التشاشيتسو للشروع بتنظيفه.

ومن الحديقة كان صوتها لا يزال مسموعاً إذ خاطبت الخادمة بقولها:

ـ انتبهي: هنا، في الظلّ، ما زالت أوراق الشجر مبلّلة.

III

قال كيكوجي لفوميكو:

- أسمعت حين اتصلت بك هاتفياً هذا الصباح صوت المطر الـذي كان ينهمـر بغزارة هنا؟

- وهل يمكن فعلاً أن يُسمع صوت المطر عبر الهاتف؟ لم أنتبه. ولكنْ قـد أكون سمعته دون أن أدرك ذلك في وقته. أكان الصوت يأتي من هذه الناحية؟

وأشارت فوميكو بعينيها إلى ناحية الحديقة حيث أوراق الشجر كانت تسرِّبُ إلى مسامعها جلبة نقل الأثاث التي كانت شيكاكو تحدثها خلال تنظيفها جناح الشاي.

قال كيكوجي الذي توجه بأنظاره هو أيضاً نحو الحديقة:

- لا أعتقد أنني سمعت أنا أيضاً صوت المـطر الذي كـان يهطل في نـاحيتكم. إلاّ أنّ مطر العاصفـة التي هبّت هنا كـان يُحدث صخبـاً هائـلاً، حتّى أنني حسبتُ، فيما بعـد، أنّه لا بـدَّ أن يكون مسمـوعاً عـبر الهاتف. كـان انهياره أشبه بمسـاقط المياه الغزيرة.

- مرّة أخرى، انتابني الهلع من وميض البرق وقصف الرعد.

- وهذا ما قلته لي في الهاتف بالفعل.

- إنّـه لغريب فعـلاً أن يكون حـدّ الشبه بـالأمّ كبيراً حتى في أكـثر التفـاصيـل تفاهة. هي أيضاً كانت تخـافُ الرعـد، وحين كنت لا أزال صغـيرة، كانت تحضن رأسي كلّما هبّت عاصفة كأنّها تخبئه تحت كمّ الكيمونو. وكلّما همّت بالخروج، خلال فصل الصيف، كانت تتفحص السماء دائماً للتثبت من أنّ الطقس لن يتبدّل. وأنـا

نفسي ما زلت حتّى اليوم أشعر برغبةٍ في أن اخبّىء رأسي تحت الكمّ كلّما دوّى الرعد!

بعد أن أسرّت بهذا، بدرت منها حركة خفيفة، كأنها إشارة ارتباك أو اعتذار كوّرت كتفيها، ثمّ نهضت قائلة:

ـ لقد أحضرت لك كوب الشينو الصغير الذي حدّثتك عنه.

لم تتغيب إلّا لثوانٍ معدودة ثمّ عادت إلى الصالة وبيدها رزمة وضعتها عند ركبتيْ كيكوجي. وإذ رأته متردّداً في فتحها استعادت الرزمة وأخرجت الكوب الضيق والمستطيل الشكل، من علبته.

ـ إذا لم تخنّي الذاكرة، قال كيكوجي، فإن والدتك كانت تستعمل أيضاً أكواب راكوياكي، من صنع ريونيو(*)، على ما أعتقد.

ـ أجل، إلّا أنّ كوبها المفضّل كان دائماً كوب الشينو. فقد كانت تقول إنّ الخزفيات الملوّنة، كالأكواب الحمراء والسوداء، لا تتيحُ للشارب أن يتلذّذ بلون البنشا أو السانشا(**) الفاتح والجميل.

ـ بالفعل، يستحيل أنْ يتلذّذ الشاربُ في كوب أسود بظلالِ لون الشاي المذهّبة، قال كيكوجي مؤكّداً على كلامها.

وإذ انتبهت إلى تردّده في تناول الكوب من أمامه، قالت فوميكو:

ـ قد لا يكون من أجود أنواع الشينو. . .

فسارع كيكوجي إلى الردّ بأنّه من النوع الممتاز. فليس هذا سببَ إبطائه في تناول الكوب الصغير وإمعانه في تأمّله.

كان في خامة خزفه الأبيض أثار حُمرة تكاد تكون غير مرئيّة، فتذكّر ما قالته

(*) ريونيو(١٧٥٦ ـ ١٨٣٤) أحد كبار الخزّافين الذي أسس سلالة خزافي ريكو الشهيرة.

(**) إثنان من أنواع الشاي الأربعة الأكثر رواجاً وهي كلها بالطبع،من أنواع الشاي الأخضر.

فوميكو هذا الصباح خلال اتصالها الهاتفي. فمن يمعن النظر قليلاً في هذه القطعة يَحسَب أنَّ الحمرة تنبثق من البياض كأنّها انعكاسٌ لشفافيّته. وحتّى حافة الكوب فقد اصطبغت بلون المغرة الزهريّ الخفيف وفي موضعٍ منها تبدو أكثر قتامة.

أهو الموضع الذي تمسّه الشفاه في حركة ارتشافِها؟

قد يكون الشاي هو الذي خلَّف هذا الأثر الذي يكاد لا يُرى، ولكنْ أيضاً قد يكون أحمر الشفاه الأنثوية التي مسّت الحافة مرّة بعد مرّة.

وإذا ما نُظر إليه بإمعان فقد يلوحُ أثرُ حمرة في خلفيـة اللون الأمغر. فهل يكون إذن كما أكّدت له فوميكو، أثر أحمر شفاه السيّدة أوتا الذي امتصّته، لفرط ما مسَّته، حبيبات الخزف بالذات؟

كان هذا المزيج العابر والدقيق لظلالٍ داكنةٍ وحمراء يظهر لنظرة غير مدقّقة حتى في التشققات الشعرية التي تشوب قشرة الطلاء.

مسحة باهتة من أحمر شفاه، كبَتْلةٍ ذابلة في تويج زهرة، متأدّمة كنقطة دم يابسة، قال كيكوجي في سرّه وقد غلبه انفعالٌ غامض سارع من خفقان قلبه. وفي الوقت نفسه الذي كانت تنتابه فيه مشاعر التقزز والاشمئزاز المرضي حتّى الغثيان، كان يجد نفسه مشدوداً إلى إغواءٍ لا يُقاوَم ويُشيعُ الفراغ في رأسه حتّى الدوار.

على الجوانب الخارجيّة للكوب نُقِشَت، كأنّها زينة لهذا الشكل المخروطي المستطيل العاري، رسومُ أعشابٍ ذات وريقات عريضة، بصباغٍ أزرق ملوَّح مائلٍ للسواد. وفي بعض المواضع تبدو وريقات العشب موشومة ببقعٍ من الصدأ.

لقد استطاعت هذه النقوش الدقيقة ببساطتها الشافية التي اخترقت أنظار كيكوجي، أن تنتشله من دوار حواسّه المريضة. وأصبح بإمكانه الآن أن يسترسل في استحسانه لرشاقة هذا الشكل المميَّز ونُبل نقائه.

- يا لجماله! قال وقد أمسك الكوب بيده أخيراً.

- لا أستطيع، من جهتي، أن أطلقَ أحكاماً بهذا الشأن، قالت فوميكو. إلّا

أنّ أمي كانت تفضّل استعمال هذا الكوب وتؤثره على الأكواب الأخرى.

ـ إنّها قطعة صُمِّمت خصّيصاً لتلائم الطباع الأنثوية، قال كيكوجي مؤكّداً، وقد تأجَّج في أعماقه من جديد، حارّاً ومفاجئاً ونابضاً بالحياة، إحساسه بأنوثة السيّدة أوتا المثيرة.

كيف خطر في بال فوميكو أن تأتي إليه لتُريه كوب الشينو هذا الذي وسمته شفتا أمّها بحمرتها؟ أكانت السذاجة دافعها أم فقدان حسّ اللياقة؟ هذا ما لم يُدركه بالضبط. غير أنّه كان عاجزاً عن مقاومة تلك السلاسة الطيّعة التي أبدتها له، شيء ما من الرضوخ التامّ الذي أفعم قلبه.

وعلى مهل راحِ يُدير الكوب بين أصابعه، فوق ركبتيه، متحاشياً لمس الموضع المحمّر من حافته.

ـ هلا أعدت الكوب إلى علبته؟ قال لها بعد تردّد. فمن المستحسن ألّا تراه كوريموتو وتعود إلى ثرثرتها المعتادة.

ـ بلى.

أعادت فوميكو طائعةً الكوب إلى علبته وسوّت الرزمة كما كانت.

الأغلب أنّها جاءت بهذه القطعة وفي نيّتها أن تقدّمها هديّةً إلى كيكوجي. غير أنّها لم تفعل، إمّا لأنّها لم تجرؤ على البوح بما أنتوته وإمّا لاعتقادها، ربّما، بأنّ الشينو لم يُعجبه.

نهضت فوميكو واتجهت نحو ردهة المدخل لتضع الرزمة هناك.

وصلت شيكاكو في تلك الأثناء وأطلّت بجذعها من الباب الجرّار من ناحية الحديقة.

ـ هلّا أحضرت لي ميزوساشي الآنسة أوتا، لو سمحت، سألت كيكوجي.

ـ أليس من الأفضل أن نستعمل أحد أباريقنا في مثل هذه الحال؟ سألها كيكوجي. أقصد أن نستعمل إبريق الآنسة أوتا أثناء وجودها معنا...

ـ ما الذي تقوله؟ من الأفضل أن نستعمل إبريقها لأنّها موجودة معنا وليس العكس. فما سنقوم به هو إحياء لذكرى والدتها وينبغي أن يجري حديثنا أمام إناء الشينو خاصّة السيّدة أوتا.

ـ السيّدة أوتا التي كنت تبغضينها بشدّة!

ـ أنا؟ ولماذا أبغضها؟ إنما عنيتُ بقولي أنّها إمرأة من طينة مختلفة، لا أكثر. ثمّ أنا لا أفهم، من ناحية ثانية، كيف يمكن أن نبغض الأموات؟ بالطبع، كنّا مختلفتين ولم أشعر بودّ تجاهها. غير أنَّ هذا بالضبط ما يجعلني قادرة على كشف ما تضمره وإدراك ما تكتمه من مشاعر.

ـ إنّها إحدى عاداتك المستهجنة كالإصرار على تخمين أفكار الآخرين!

ـ ليس عليهم ببساطة سوى أن يحولوا دون أن أخمّنها!

أطلّت فوميكو قادمةً عبر الرواق ثمّ دخلت واتّخذت لها مكاناً قرب العتبة.

استدارت شيكاكو نحوها، مبرزةً كتفها اليسرى، لتسألها:

ـ أتسمحين لنا باستعمال إبريق الشينو خاصّة السيّدة والدتك؟

ـ بالطبع، إفعلا ما شئتما، رجاءً، أجابت شيكاكو.

ذهب كيكوجي لجلب إناء الشينو من الخزانة حيث كان وضعه.

وحين عاد أخذته شيكاكو بعد أن دسّت مروحتها تحت حزام الكيمونو وعادت أدراجها في اتجاه الحديقة وقد حملت الإبريق في علبته تحت إبطها.

وحين عبر في طريق عودته بمحاذاة العتبة حيث جلست الفتاة، أسرّ كيكوجي إليها:

ـ لقد كانت مفاجأة لي بالفعل حين أخبرتني هذا الصباح، بأنّك انتقلتِ من دارك وبأنّكِ تدبّرت بمفردك قضيّة بيع البيت. ألم يكن في ذلك أي مشقّة لك؟

ـ لا. الرجل الذي اشترى البيت صديقٌ لنا وقد جرت الأمور بلا تعقيدات. بل، لقد عرض عليّ أن انتقل، إن شئت، إلى أوميزو حيث باستطاعتي الإقامة في

جناح كان هو نفسه يسكنه قبل إبرام عقد البيع. ولكنني لم أشأ أن أحيا وحيدة في منزل مهما كان صغيراً: ورأيتُ أنّه من الأفضل استئجار غرفةٍ لإقامتي والشروع في البحث عن عمل. ولهذا السبب أسكن الآن مع إحدى صديقاتي.

- والعمل، هل وفّقت في إيجاد عمل؟

- لا، لم أوفّق بعد. فالمشكلة، إن كنت تدرك ما أقول، هي أنني وجدت نفسي فجأةً لا أتقن أي عمل محدّد، قالت في ابتسامة اعتذار. وكنتُ قد صمّمت في البداية على أن لا أزورك قبل تسوية أوضاعي. إذ أجدني سبباً لما يكدّر لقاءنا في موقفي هذا كفتاةٍ تكابدُ أحزانها، بلا عمل، بلا بيت...

كاد كيكوجي أن يُجيبها أنَّ الأمور قد تكون أفضل على هذاالنحو، ولكنّه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة. وعلى الرغم من ذلك كان يحاول عبثاً أن يتخيّل وحدة فوميكو في مواجهة العالم، ويخفق، مهما كرّر المحاولة، لأنّه لا يعثر على أثر لهذه الوحدة في سلوكها.

- أنا نفسي أفكّر في بيع منزلي، قال كيكوجي. إلّا أنني كنت لا أزال متردّداً بهذا الشأن حتى الآن، وإن كنتُ في أعماقي مصمّماً على البيع. والبرهان: هو أنني لم أفكر حتّى في إصلاح مسرب المياه المثقوب، كما ترين بنفسك، ولا في استبدال الحصر القديمة.

- ألن تقيم إذن حفل زواجك هنا؟ قالت ببساطة شديدة. لديك متسع من الوقت لإجراء كلّ الاصلاحات اللازمة بانتظار...

- أتلمحين إلى ثرثرة كوريموتو وحكاياتها؟... أتعتقدين فعلاً بأنني قادرٌ على الزواج الآن؟

- إذا كانت ذكرى والدتي هي التي تدفعك إلى مثل هذا القول، فعليك أن تكفَّ عن تعذيب نفسك بهذا الشأن، صدّقني. لقد حظيت هذه القصّة من قلب أمّي ما يُتيح لكَ أنتَ أن تنساها.

IV

لم تلبث يدا شيكاكو الماهرتان أن أنجزتا ترتيب الجناح وإعداده لمجلس الشاي.

- كيف تجدان تناسق الإبريق مع القطع الأخرى؟ قالت بنبرة سؤال. ولكنّ كيكوجي لا يجد عادة ما يقوله في مثل هذه الأمور.

لازمت فوميكو الصمت هي أيضاً حين رأت أن كيكوجي لم يفارق صمته. ومكثا معاً يحدّقان في ميزوساشي الشينو.

ففي ذلك اليوم، استعادت أخيراً هذه القطعة التي استعملتها فوميكو كمزهرية على المذبح المأتمي الذي أقيم لذكرى السيّدة أوتا، وكذلك الأمر كيكوجي حين قُدّمت له هديّةً، وجهة استعمالها الحقيقية، كإبريق للماء العذب بين يدي أستاذة الشاي الحاذقة كوريموتو شيكاكو.

قدر غريب هو قدر هذا الإناء! ولكن في النهاية أما كان يخضع، بهذه الطريقة، لقدر جميع القطع والأواني التي تُستخدم في طقوس الشاي؟

حتّى قبل أن يُصبح في حيازة السيّدة أوتا، طوال القرون الثلاثة أو الأربعة منذ خروجه من فرن الخزّاف، وانتقاله من يدٍ إلى يد، ومن جيل إلى جيل، أيّ تاريخ غريب كان تاريخه، بكلّ ما يزخر به من تفاصيل حياة كلٍّ من مالكيه المتعاقبين وأسرارهم؟

- ألا تلاحظان كم هو مدهشٌ أن توضع بجانب حديد المغلاة أو القدر المعدنية مثل هذه المادة الرخصة التي تمثلها طينة الشينو بتناسقها وصلابتها الدفينة، فتبرز جوانب الانسجام في المقارنة بينها؟ قال كيكوجي مخاطباً فوميكو.

كأنّ الضوء الرقيق الذي يتماوجُ، ناعماً وناصعاً، على جنبات الإبريق الدقيقة،

ليس سوى وهج ينبثقُ من صلب المادّة.

كان كيكوجي قد اعترف لفوميكو، عندما اتصل بها هاتفياً في الصباح، بأنّه لا يستطيع أن ينظر إلى الميزوساشي دون أن تتملكه الرغبة في أن يراها هي. وها هو يفكر الآن أنَّ لبياض بَشَرَة السيّدة أوتا، الناعم واللذيذ، صفةً ما غامضة، شيئاً أشبه بما هو انثوي بامتياز، في جوهره الأكثر غموضاً وفي أقصى ما في سحره من قوّة.

كان شُبّاك الجناح وبابه الجرّار قد تُركا مشرّعين بسبب القيظ. وكان خيال فوميكو بشعرها الذي تتماوج عليه الظلال شبه السائلة لأوراق الشجر والأغصان، يرتسم داخل إطار النافذة المضاءة والتي تظلّلها وريقات إحدى أشجار القيقب القريبة. وكان النور المعاكس كأنّه يزيد من استطالة عنقها ودقّته. أمّا ذراعاها الظاهرتان من كمّي ثوبها القصيرين، فكانتا تنسابان خطاً من اللؤلؤ حتّى أعماق الظلّ وخضرة الوريقات الطرية. كانت نحيلة وهيفاء ولكنَّ ذراعيها وكتفيها لم تفارقها الرقّة المحبّبة في استدارة تكوينها الممتلىء.

لم تلبث شيكاكو التي كانت أنظارها، هي أيضاً، لا تفارق الإبريق، أن قالت بدورها:

- إنّ الميزوساشي الحقيقي لا يحظى بقيمته كاملةً إلاّ إذا استعمل في فنّ الشاي. هذه هي الحقيقة! فمن العار أن يُستخدم لباقات الورود على الطريقة الغربيّة!

- أتعلمان، غالباً ما كانت أمّي تستخدمه لزينة الورود، قالت فوميكو.

- أليس حلماً يتحقّق أمام أعيننا أن يشهد هذا الإناء احتفالنا بذكرى والدتك؟ آه! أنا واثقة من أنّها ستكون سعيدة جداً حين ترى أن الميزوساشي خاصّتها قد أصبح في مكانه في هذا الجناح!

ربّما تضمنت هذه العبارات الغامضة شيئاً من السخرية، ولكن فوميكو أجابت ببساطة:

ـ كـانت أمي لا تستعمله إلاّ كمـزهـريـة، وأنـا نفسي أقلعتُ عن مـزاولـة فن الشاي.

ـ أوه! لا تقـولي هذا، لا تقـولي! صرخت شيكـاكـو مجيلةً أبصـارهـا في زوايـا التشاشيتسو الأربع. فأنا التي عرفت عـدداً لا يُحصى من حجرات الشـاي، لم أجد في مكان آخر غير هذا المكان مثل هذا القدر من الرحابة التامّة والوقار.

ثمّ أضافت ملتفتةً نحو كيكوجي:

ـ السنة القادمة ستكون الذكرى الخامسة لوفاة والدك يا سيّد ميتاني. فـما رأيك بأن تقيم حفل شاي بالمناسبة؟

ـ إنها فكـرة جيّدة، وأحسب أنّـه بالإمكـان خداع المـدعوين من طـريق تقديم الشاي لهم في أكواب مزيّفة بدل استعمال القطع الخزفية الثمينة.

ـ مزيّفة! ما الذي تتفوّه به؟ لا توجد في مجموعة والدك قطعة مزيّفة واحدة!

ـ حقّاً؟ ومع ذلك أنا أرى أنَّ لا ضير على الإطلاق من إجراء الشعائر التقليديّة الفخمـة، من بدايتهـا وحتى نهايتها، بـاستخـدامنـا لقـطع مـزيّفـة وحسب، قـال كيكوجي مخاطباً، هذه المرّة، فوميكـو. لطالما بدا لي جـوّ هذه الغـرفة الـزنخ كـأنّه مشبـع بالسمّ. وربّمـا لن يصبح نقيّـاً إلاّ إذا أُقيـم فيه حفـل شـاي بمثـابـة احتفـال تذكاري لا تُستخدم فيه، لمزيد من الفخامـة، سـوى الأوعية المـزيّفة! بعـد انتهاء مـأثرة التـطهُّر هـذه، وإنقاذاً لـذكرى المرحوم والـدي سأقلع نهائيّـاً عن طقـوسنـا التقليـديّة الجميلة في فنّ الشـاي الـذي ـينبغي الاعـتراف ـ لم أكن يـومـاً من بـين مزاوليه الأوفياء.

ـ أي بكلام آخر، إنّ استاذة الشاي العجوز، التي هي أنا، تُكـثر من زياراتهـا لهذا المكان لتوقظ فيه هذا الجوّ وتضفي قليلاً من الحياة عـلى هذا الجنـاح المشؤوم، قالت شيكاكو وهي تحرّك ببراعة عصا الشازن(*).

(*) مضرب صغير من القصب يُستخدم لسحق ذرور الشاي الأخضر قبل إعداده.

ـ ما كنتُ لأصل بكلامي إلى هذا الحدّ! قال كيكوجي ساخراً.

ـ وأنا أيضاً لن أجاريك إلى هذا الحدّ، أجابت شيكاكو. ولكنْ إذا أردت فعلاً أن تتخلّص من هذه الروابط القديمة وبموافقتي، فلن يكون لك هذا إلاّ إذا قبلت بالروابط الجديدة للزفاف الذي أقترحه عليك.

وعلى الأثر اقتربت شيكاكو ووضعت بحركة جفاء، كوب الشاي المُعدّ أمام كيكوجي. ثم التفتت نحو فوميكو وقالت:

ـ لفرط ما لسعتني عبارات السخرية اللاذعة التي يكيلها لي السيّد ميتاني، بتُّ أسأل نفسي بالفعل إذا كانت الأيدي التي سلّمتها إناء السيدة والدتك الثمين هي الأيدي الأمينة! أكاد أرى مجدّداً وجهها يتلألأ، كانعكاس ضوء خاطف، على قشرة هذا الشينو الرقيق.

ألقى كيكوجي، هو أيضاً، بعد أن شرب من الكوب، وهمّ بإعادته إلى مكانه على الأرض، نظرةً خاطفة على الميزوساشي وقال في سرّه إنّ الوجه الذي ينعكس الآن على قشرةِ غطاء الإبريق الأسود، في مرآة البرنيق الصيني هذه، ربّما كان وجه شيكاكو.

أمّا فوميكو فلم تبد، من جهتها، أي ردّ فعل وبدت ساهيةً عنها. ألأنّها لا تريد أن تعارض رأي الأستاذة التي كانت تعلّمها أصول فنّ الشاي، أم لأنّها تتعمّد صمّ أذنيها عمّا تسمع؟ كان كيكوجي حائراً لا يفهم معنى لسلوكها. كما استهجن من قبل سلوكها المطواع حين وافقت على المجيء إلى التشاشيتسو بحضور شيكاكو. وحتّى حين راحت هذه الأخيرة تحدّثها عن زواج كيكوجي لم تبد الفتاة أي اعتراض. فلا الضغينة التي كانت شيكاكو تبديها حيال السيّدة أوتا، ولا الاحتقار الذي تبديه إزاء ابنتها، ولا ذلك الاستفزاز الجارح الذي تضمره كلّ كلمة من كلماتها: لا شيء من هذا كلّه كان من شأنه أن ينال من برود فوميكو ولا مبالاتها.

ألأنّ حدادها أغرقها في هاوية حزنٍ مماثلة فما عاد شيءٌ يهزّها؟ ألأنّ الألم يغلّفُ روحها من كل ناحية فما عادت ترى في النفثات السامّة سوى نسائم براءة لا

تعكّر، عبثاً، إلاّ صفحة المياه؟

أم لعلّه ذلك الشبه الكبير بأمّها وطباعها والذي يجعلها عاجزةً عن الثورة لا ضدّ نفسها ولا ضدّ الآخرين، والذي يجمّلُ فيها، وعلى أحسن وجه، صورة السذاجة البتوليّة المطلقة.

أما هو، كيكوجي نفسه، فلبث ساكناً من جهته، ولم يحاول مجرّد الدفاع عن الفتاة في مواجهة كلّ العبارات اللئيمة وكلّ الإهانات التي تعرّضت لها. كان يُدرك تماماً معنى موقفه هذا ويعرف جيّداً أنّ تصرّفه غير قابل للوصف.

وأمّا شيكاكو، ذلك المسخ الحاقد والشاذ الذي كان يراه في هيئة شيكاكو، فبماذا يصفها؟ ـ شيكاكو التي كانت تختتم مجلس الشاي بأن تسكب آخر كوب لنفسها.

شربت وتناولت ساعتها من بطانة حزامها:

ـ هذه الساعات الضئيلة، قالت، ما فائدتها لعجائز أصيبوا بضعف النظر! . . . كان عليك يا سيّد ميتاني أن تعطيني ساعة والدك القديمة.

فأجابها كيكوجي، غير راغبٍ في تلبية طلبها، بأن الساعة لم تعد في حوزته.

ـ إنها ساعة جيب: غالباً ما كنتُ أراها في جيب صدرة والدك! لا بدّ أنّكِ تعرفينها، أنت أيضاً، يا آنسة أوتا. لا شك أنّه كان يحملها دائماً حين يأتي لزيارتكم، أضافت قائلةً وقد التفتت نحو فوميكو بسحنة البراءة التي تجيد اصطناعها.

أغضت فوميكو ولم تُجب.

ثمّ لم تلبث شيكاكو أن استعادت مظهر المرأة الحيوية كثيرة المشاغل:

ـ أهي العاشرة وعشر دقائق بالضبط؟ عيناي البائستان أصبحتا مشوّشتين ولا أستطيع أن أميّز العقربين بدقة . . . لديّ درس شاي عند الثالثة لمجموعة صغيرة ستلتقي في منزل الآنسة إينامورا. ولكنني آثرت المجيء لزيارتك، يا سيّد ميتاني، قبل أن أذهب إلى هناك لكي أُبلّغها جوابك.

ـ أرجو أن تبلّغيها جواباً واضحاً وصريحاً لا يدع مجالاً للشك قال كيكوجي بإصرار، فلا فائدة من التردّد بهذا الشأن.

ـ بالتأكيد: واضح وصريح! قالت شيكاكو بضحكة استهزاء. وسأستأذنك، إن سمحت لي، في المجيء ذات يوم برفقة هذه المجموعة الصغيرة لأقامة حفل شاي هنا.

ـ لكي يكون لك ذلك، ما عليك سوى أن تطلبي من أسرة إينامورا شراء المنزل. لقد صمّمت على بيعه في أي حال.

ودون أن تعير كلام كيكوجي المزيد من الاهتمام، التفتت نحو فوميكو وقالت:

ـ سترافقينني، أليس كذلك؟ ريثما نرتِّب المكان ثم نغادر. فمن دواعي سروري أن نترافق لبعض الطريق.

ـ سأساعدك في غسل الأواني وترتيبها.

ـ حسناً جداً، شكراً لك.

وسرعان ما نهضت شيكاكو ودلفت إلى الميزويا، حيث لم تلبث أن سمعت جلبة مياه غسل الأواني.

قال كيكوجي للفتاة بصوتٍ مُنخفض وعاجل:

ـ ليس لديك أي ارتباطات لما بعد الظهر، أليس كذلك؟ بإمكانك البقاء هنا؟ إذن لا تغادري برفقتها!

ـ ذلك أنني أخاف منها.

ـ هيّا، لا يوجد أي سبب لخوفك منها!

ـ لا، لا، لا أجرؤ.

ـ إذن، إذهبي برفقتها وعودي ما أن يُتاح لك التخلّص منها.

هزّت فوميكو مرّة أخرى برأسها علامةً على رفض اقتراحه وبحركةٍ من يديها

الإثنتين سوّت ثنيّات ثوبهـا. وفجأة مـدّ كيكوجي ذراعيـه لمساعـدتها ظنّـاً منه أنّها موشكة على الوقوع، فاصطبغت وجنتا فوميكو بحمرة مباغتة.

كان كلام شيكاكو على الساعة قد جرحها، وبَرْغَم استحياؤها بُقعتين حمـراوين تحت عينيها، وسرعان ما أصبحتا وردتين في كامل تفتّحهما.

دلفت فوميكو إلى الميزويا وقد حملت إناء الشينـو بين ذراعيهـا، ومن هناك كـان نعيب شيكاكو مسموعاً:

- حتماً ما زلتِ تحيين مع ذكرى والدتك!

الكتاب الخامس

نجمة مزدوجة

I

قصدت كوريموتو شيكاكو منزل كيكوجي لتـزفّ إليه نبـأ زواج فوميكـو، وزواج الآنسة إينامورا أيضاً.

كان الوقت صيفاً. وكان الضياء لا يزال يعـمُّ الأرجـاء وإن كانت السـاعة قـد تجاوزت الثامنة والنصف. بعد تناوله طعام العشاء، استلقى كيكوجي على أرضيّـة الـرواق المسقوف وراح يلهـو بتأمّـل تحويـم الحبـاحب داخل القفص الصغير الذي اشترته الخادمة. وكان يرى الشعاع الشاحبَ والخافت يزداد سطوعاً وقـوّة في تحوّلـه إلى بصيص أصفر تبثّه الحشرات الأنيقة كلما أعتم الشفق وادلهمّ. كان ضـوء النهار قد تبدَّد تماماً، ولكنّ كيكوجي لمَ يهمّ حتّى بالنهوض لإضاءة الأنوار.

لقد عاد لتوّه بعد عطلة بضعة أيام قضاها على ضفـاف بحيرة نـوجيري في فيلّلا يملكها صديقٌ له تزوّج حديثاً ورزق مولوده الأوّل منذ وقت قليل.

لم يكن كيكوجي، الذي لا يعرف شيئاً عن الأطفال الرضّع، ليخمّن بدقة عمر هذا المولود، أو إذا كان جميلاً أم لا. ولذلك قال في ارتباكه بشيء من التعجّب:

ـ هذا ما أسميه طفلاً جميلاً! كم يبدو كبيراً!

ـ أوه! ليس تماماً، أجابت، عندها، زوجة صـديقه. لقـد كان حجمـه ضئيلاً جـداً عند الـولادة ويكاد يثـير الشفقة. ولكنّـه في الأيام الأخـيرة استعاد بعضـاً من الصحة والعافية.

لوّح كيكوجي بيديه نصب عيني الطفل:

ـ عيناه لا ترمشان؟ سألها.

ـ لقـد أصبح يـرى الأشيـاء ويميّـز الأشكـال، إلاّ أنّ عينيـه مـا اعتـادتـا بعـدُ

الاستجابة للإشارات. ولن تبدأ هذه الاستجابة، كأن ترمش عيناه، إلّا بعد وقت.

لم يتجاوز الرضيعُ، كما أخبرته، المئة اليوم، أما هو فكان يحسب أنه تجاوز الخمسة أو الستة أشهر. ولهذا السبب، قال كيكوجي في سرّه، كان مظهر الزوجة الفتيّة، بشعرها المهمل ووجهها الشاحب، لا يزال موسوماً بما تخلّفه آلام الوضع بعد الولادة.

كان كلّ شيء في ذلك المنزل يدور حول الطفل والعناية به، الأمر الذي جعل كيكوجي يحيا في وسطهم كأنّه على حدة. وخلال رحلة العودة بعد أن غادرهم، كان لا يعرف لماذا لا تفارق مخيّلته صورة الأمّ الشابة الشاحبة والمطيعة، التي، برغم نحولها ووهنها، كانت تحمل وليدها وتداعبه بفرحٍ أقرب إلى الانتشاء. كم كانت سعيدة إذن، تلك المرأة، في دعة تلك الحياة الصيفية! ذلك أنّ الزوجين الشابين ما استطاعا حتّى ذلك الوقت، إلّا أن يعيشا في منزل أهلهما. وكانت تلك هي المرّة الأولى، منذ ولادة الطفل، التي يتاح لهما فيها أن يكونا قريبين أحدهما من الآخر، هناك، في ذلك المنزل الصيفي على ضفاف البحيرة.

كان كيكوجي، بعد عودته إلى داره، مُستلقياً على أرضية الرواق، مستغرقاً في أحلام يقظته، تحضره صورة الأمّ الشابة بكثير من العطف وبنوعٍ من الحنين الشافي. وفي تلك الأثناء بالذات علم بزيارة شيكاكو المفاجئة.

دلفت إلى داخل الحجرة مُبديةً تعجُّبها بلا مراعاة: «أوه! يا لهذه العتمة!».

ثمّ اقتربت لتجلس عند قدمي كيكوجي وأردفت قائلة:

- أنتم تستحقون الشفقة، بالفعل، أنتم معشر العزّاب! فلا تجدون مَن يُضيءُ لكم أنوار البيت في أوقات تكاسلكم!

سحب كيكوجي ساقيه وهمّ بحركةٍ كأنّه يريد أن ينهض، ولكنّه عاد وجلس على مهل كما لو كان مرغماً على ذلك.

- لا تزعج نفسك؟ أرجوك! قالت شيكاكو وقد مدّت يدها اليمنى نحوه للتأكيد على كلامها، وعلى الأثر أنحنت لأداء تحيّتها التقليدية.

وحين فرغت من التحيّة أخبرته بأنها عادت للتوّ من رحلة إلى كيوتو عرّجت خلالها، وفي طريق العودة، على هاكون. وفي كيوتو التقت في منزل استاذها في فن الشاي، بتاجر التحف النادرة أويزومي.

- لقد تحدّثنا طويلاً عن والدك، وأصر هذا الرجل على تزويدي بعنوان المنزل الذي كان والدك معتاداً على ارتياده مصحوباً برفقةٍ من الجنس اللطيف: إنّه نزل ياباني متواضع في ضاحية لياماشي. بل ونصحني بأن أقيم فيه! كم تعوزه اللياقة! ذلك أنني واثقة من أن والدك أقام في هذا النزل مع السيّدة أوتا. قد يحسب الناس دائماً أنني من طينة النساء اللواتي لا يخشين شيئاً. ولكنْ مَنْ يجرؤ على النوم مطمئناً في مكانٍ يحتضن ذكرى عاشقين راحلين؟

قال كيكوجي في سرّه إنّه إذا كان هناك من تعوزه اللياقة فهي شيكاكو نفسها، إذ تهرع لتروي على مسامعي مثل هذه الأمور البغيضة! ومع ذلك، لزم الصمت.

- وأنت، أردفت شيكاكو، متى عدت من نوجيري؟

بدا واضحاً من نبرتها أنّها لا تجهل شيئاً من أخباره. فالمؤكّد أنها استدرجت الخادمة فور وصولها لتخبرها بكلّ ما تودّ معرفته. فهذا دأبها، على جاري عادتها، أن تدخل على هذا النحو دون استئذان.

- لقد وصلت منذ بضع ساعات، أجاب كيكوجي بنفاد صبر.

- وأنا عدتُ منذ بضعة أيّام، أوضحت شيكاكو بنبرة جفاء، ولم تنس طبعاً أن تدفع كتفها اليسرى بحركة سريعة إلى الأمام قبل أن تتابع: «لقد حدثت، لأسفي الشديد، في الأثناء أمور غير مستحبّة تدعوني لأن أقدّم لك أشدّ الاعتذار. . . لقد أذهلتني، أنا نفسي! تخيّل أنني كنتُ أبعد الناس عن مجرّد التفكير في ذلك ولكن. . . ».

كل هذه المقدّمات لتخبره بأنّ الآنسة إينامورا أصبحت الآن إمرأة متزوجة.

كانت العتمة التي تستغرق الرواق مؤاتية فأرتسمت على وجه كيكوجي معالم الدهشة وخيبة الأمل: فقد كان واثقاً من أنّ شيكاكو لن تلمح شيئاً من ردود

فعله. إلاّ أنّه بذل ما بوسعه لتصنّع اللامبالاة حين سألها:

- آه! حقاً؟ ومتى تزوجت؟

- أنت تتكلّم ببرود من لا يعنيه هذا الأمر على الإطلاق، قالت شيكاكو بسخرية لاذعة.

- لقد كرّرت لك مراراً في السابق عدم اكتراثي بعرض الزواج الذي تريدينه! أجاب كيكوجي.

- بكلام اللسان طبعاً، علّقت شيكاكو. لقد حرصت في الظاهر فقط على انقاذ المظاهر ولم تكفَّ لحظة واحدة عن لعب دور الشاب الذي تلحّ عليه هذه العجوز كوريموتو بإغواءاتها الشيطانية. ولكنْ مهما تظاهرت وأبديت امتعاضك على الدوام، فسوف تعترف، برغم كل شيء، بأنّ الفتاة لم تكن سيئة!

- ما هذه الترّهات؟ قال كيكوجي وقد استرسل في ضحك لئيم.

- اعترف إذن بأنها كانت تعجبك. صحيح أم لا؟

- إذا كان هذا ما تقصدين فأنا أرى أنّها رائعة!

- أحسنت! أرأيت كيف استطعتُ أن أعرف مكنون نفسك!

- ولكنّي لا أرى الصلة بين الأمرين: إذ يحدث أن يجد الرجلُ فتاة رائعة دون أن يعني هذا بالضرورة أنّه يريد الزواج منها!

هذا ما كان كيكوجي يقوله ردّاً على شيكاكو. وما أخفاه عنها غصّة في القلب ألّمت به لسماعه نبأ زواج الآنسة إينامورا، يوكيكو، تلك الفتاة الرقيقة التي كان في تلك الأثناء يجهد في استحضار صورتها بكثير من الشغف أشبه بالظمأ الشديد.

هو، في الحقيقة، لم يلتق بها سوى مرّتين.

في جناح معبد إنغاكوجي، حيث طلبت منها شيكاكو أن تصنع له الشاي لكي يتسنّى له أن يتأمّلها بلا حرج. وكم بدت له مميّزة وعلى سجيّتها! وكم كانت حركاتها البسيطة تشيع إحساساً بالأناقة! وسرعان ما عاوده الحنين لذكرى الكيمونو

ذي الكمّين الواسعين الذي كانت ترتديه، وشعرها الذي انعكست عليه أنوار النافذة حيث تتماوج الظلال الخفيفة لأغصان الأشجار القريبة. أمّا وجهها، فلا، كان عاجزاً عن استحضار صورتها بمثل الدقّة التي كان يرى فيها بوضوح نقوش الفوكوزا(*) الأحمر والفوطة الورديّة الرقيقة المزركشة برسم الطيور البيضاء، والتي كانت تحملها حين التقى بها على طريق الجناح في حديقة المعبد.

وعندما جاءت لزيارته، فيما بعد، وتعمّدت شيكاكو أن تعدّ لهما الشاي بنفسها، كانت الانفعالات التي هزّت كيانه في حضور الفتاة عميقة الأثر حتّى كاد يحسب في صبيحة اليوم التالي، أن بعضاً من عطرها كان لا يزال عابقاً في أرجاء التشاشيتسو. كانت أزهار السوسن التي تزيّن حزامها لا تزال ماثلة أمام عينيه. إلاّ وجهها، ملامح وجهها، فقد كان، للمرّة الثانية أيضاً، عاجزاً عن استحضار صورتها.

عندئذٍ راح كيكوجي يفكّر أنّه يجد صعوبةً مماثلة في استحضار ملامح والديه اللذين لم يغيبا منذ وقت طويل، ثمّ لا يلبث أن يتذكرها، تلك الملامح، دفعة واحدة حين يصادف صورة لهما فيصرح في سرّه: ولكنْ بلى، إنّها ملامحهما! أليس صحيحاً ما يُقال إنّك كلّما ازداد حبُّك وإعزازك لأناس في هذا العالم، كانت الصورة التي تحتفظ بها لهم غائمةً ومشوّشة بينما يرسخ كلّ ما هو مقزّز وكريه في أعماق ذاكرتك؟

لقد كانت الصورة التي ارتسمت في ذاكرته للفتاة الشابة، شكل عينيها ووجهها، أشبه بومضٍ خاطف لا قوامَ له، في الوقت الذي كانت البقع الدميمة على نحر شيكاكو ترتسمُ فيه بوضوحِ ضفدعٍ بشعٍ ولعين.

من مكانه على أرضيّة الرواق كان في استطاعة كيكوجي أن يتخيّل، برغم العتمة التي أغرقت المكان، ملابس شيكاكو الداخلية المصنوعة من كريب أوجيبا الأبيض. ولم يكن عليه سوى الركون إلى ذاكرته لتتراءى له البُقع تحت الملابس التي، لو أضيئت، لشكّلت نوعاً من الشاشة المكبِّرة أمامها. فالعتمة نفسها كانت

(*) نوعٌ من المنديل، يكونُ عادةً من الحرير.

شرطاً لوضوح الرؤية فيُصابُ حياها بالغثيان.

ـ حين يعثر أحدٌ ما على فتاة جذّابة كهذه، فحريّ به ألّا يدعها تفلت منه بمثل هذا الغباء! قالت شيكاكو. أو تعلم، يستحيل أن يصادفَ المرءُ فتاةً مثل يوكيكو مرّتين في حياة واحدة! بإمكانك أن تبحث ما حييت فلن تعثر على مثيلتها مهما حاولت. وهذه الحقيقة هي إحدى الحقائق البسيطة التي لن تلبث أن تدركها مع الوقت.

كانت شيكاكو تخاطبه بجفاء ثمّ أردفت قائلة بنبرة تعنيف:

ـ ما يدعو إلى الاستهجان هو أن تكون، في وقتٍ معاً، على هذا القدر من الجهل بأمور الحياة وعلى هذا القدر من التطلّب! ذلك أنّ ما آلت إليه الأمور من شأنه أن يبدّل قدرك تبديلاً تاماً: أقصدُ قدريكما. أنت والآنسة إينامورا. أنت تعلم جيداً أنّها، من جهتها، لم ترفض الفكرة! فكم يكون ذنبك كبيراً، في آخر الأمر، إنْ لم توفّق بزواجها الآخر.

مكث كيكوجي صامتاً.

ـ هذا في حين أنّ الفرصة قد أتيحت لك، أنت، أن تراها! تخيَّل قليلاً أن يوكيكو أحسّت، بعد مرور السنين، بالندم لأنها لم تتزوّجك! لو كنتُ في حالتك لما شعرت يوماً براحة الضمير!

كان صوت شيكاكو ينفثُ سموم الكراهية.

فما فائدة الموعظة بعد أن تزوّجت يوكيكو؟

ـ أليس حباحبَ ما أراه هناك، في ذلك القفص الصغير. حباحب، وقد أصبحنا في موسم صرّار الخريف! كأنّك تحفظ طيف الموسم المنصرم في غير وقته. . . كأنّك فاقدٌ لمعنى تعاقب الفصول!

ـ خادمتي العجوز هي التي أحضرتها لي، أجابها كيكوجي.

ـ إنه، بالفعل، سلوك يليق بخادمة. غير أنّ مثل هذه الأمور ما كانت لتحدث

في منزلك لـو أنك زاولت فنّ الشـاي كما ينبغي. فنحن، في اليـابان، نمتلك حسّ احترام الفصول.

لم يكن بوسعه الزعمَ أنّ ما تقوله يُجـافي الحقيقة كلّهـا. فكيف له، بـالفعل، أن يُنكر هذا التناقض الظاهر بين بريق الحباحب المضيء ومناخ الفصل الذي حلّ منذ بعض الوقت؟ فقد سمـع كيكوجي، خـلال إقامتـه على ضفـاف بحيرة نـوجيري، إنشاد صرّار الخريف. بـل كان يـرى أن بقاء الحبـاحب على قيـد الحياة حتّى ذلـك الوقت أمرٌ مُستهجن بالفعل.

ـ لو كنت مُتزوّجاً لحرصت زوجتك على أن تتجنّب مثل هذه العادات المبتذلة: فما كانت لتسمح بأن تمثل أمام عينيك مثل هذه الأطلال الكئيبة في غير وقتها.

وحين أبدت شيكاكو هذه الملاحظة، تلوّن صوتها بشيءٍ من الانفعال:

ـ أنا التي كنتُ أحسب أنني بتوسّطي لإتمام هذا الزواج، إنّما أؤدّي خدمة أخيرة احتراماً لذكرى المرحوم والدك!

ـ تؤدّين خدمة؟ لوالدي؟ قال كيكوجي مُتعجّباً.

ـ بـلى، بالـطبع. وأنت، أجدك ممدّداً في العتمـة عـلى أرضيّـة الـرواق تتـأمّـلُ حباحبك البائس! حتّى الآنسة أوتـا استطاعت، في الأثنـاء، أن تجد لهـا زوجاً هي أيضاً.

ماذا؟ متى حدث ذلك؟ قال كيكوجي في تلهّف وقد عجز هذه المـرّة عن تمالـك دهشته وانفعاله.

وفكّر أن شيكاكو لا بدّ أن تكون لاحظت اضطرابه.

ـ أنـا نفسي ذُهلت لسماعي النبـأ بعد عـودتي من كيوتـو. كأنّهما قـد اتفقتا معـاً بطريقة ما، على عقد قرانهما في الـوقت نفسه! شبّـان اليـوم لا يحفظـون العهد! . . كنت سمعتُ بنبـأ زفاف فـوميكو وحسبتُ لـوهلة أنّ العقبة التي كـانت تحـول دون زواجك قد زالت أخيراً، ولكن سرعان ما علمت بأنّ الآنسة إينامورا قد تـزوجت هي أيضـاً. كأنّها انتزعت منّي ما أنـا أحقّ به، فعـلاً. ولكنْ أعودُ وأقـول ما الـذي دفعك أنت إلى المماطلة والتردّد كما كـان حالـك؟ أنت المخطىء الـوحيد في كـلّ ما جرى.

لم يكن كيكوجي يفكّر، من جهته، إلاّ بفوميكو. فقد كان عاجزاً عن القبول بحقيقة زواجها.

ـ في آخر الأمر اقتنعتُ بأنّ السيّدة أوتا أفلحت، بعد وفاتها، بمنع زواجك من الآنسة إينامورا. وفي الوقت نفسه أفكّر أيضاً أنّ ابنتها قد تزوجت أيضاً، وأحسبُ الآن أن دارك تخلّصت، إلى الأبد، من الأرواح الشريرة التي كانت تسكنها.

نظرت شيكاكو مطوّلاً في اتجاه الحديقة وقالت:

ـ ما حدث قد حدث. ولم يبق الآن سوى أن تنصرف إلى العناية بأشجارك وحديقتك. حتّى في ساعات الليل لا يفارقني الشعور بأنني اختنق في كثافة هذه الأعشاب المهملة!

وبالفعل فمنذ وفاة والده، أي منذ أربعة أعوام، وكيكوجي لا يقدم حتّى على استخدام بستانيّ للعناية بحديقته. فأصبحت أشجارها مهملة، تحاصرها الأعشاب الكثيفة من كل صوب، كأنّ قيظ الظهيرة إذ يستظلها، يمكثُ، في ساعات الليل، سجين تشابكها.

ـ حتّى أنّ الخادمة لا تكلّف نفسها عناء القيام ببعض أعمال السقاية فمن شأن ذلك أن يُشيع بعض الطراوة في الأرجاء! ينبغي أن تفعل، بجدّ.

ـ أنتِ تحشرين أنفك في ما لا يعنيك! قال كيكوجي.

سوى أنّه مهما أبدى امتعاضه لكلّ ملاحظة تسوقها شيكاكو فلن ينجو من سيل ثرثرتها. وكلّما التقى بها ازدادت الأمور سوءاً.

كانت تضاعفُ من حدّة لهجتها وفظاظتها لأنّها بذلك تستحوذ على اهتمامه وتنجح في سبر أغوار مشاعره الدفينة. وكان كيكوجي لا يجهل شيئاً من مقاصدها، وإذا كان يتظاهر بالدخول في لعبتها فهو، إلى ذلك، لا يحيد عن حذره الشديد منها، غير أن شيكاكو لا تبالي: كانت تتصرّف وكأنّها لا تلاحظ شيئاً في حين أنّها لا تغفل دوماً عن شيء. وتعرفُ كلّ شيء وفي أدقّ التفاصيل. ولم تكن تفوّت، بالمناسبة، أي فرصةٍ لإظهار ما تعرفه وتضمره.

كانت لها طريقة في الكلام تغلب عليها السخرية حتّى أن كيكوجي لم يفاجأ مرّة واحدة بما قد تقوله. فبطريقة أو بأخرى كان بإمكانه أن يحدس بما قد يخطر لها، لا سيّما وأنّها تبحث دائماً عن الأمور التي من شأنها أن تزعجه أو تثير اشمئزازه.

حتّى في تلك الليلة لم تكفّ لحظة واحدة عن ترصُّد ردود فعله المحتملة على نبأ زواج فوميكو والآنسة إينامورا. لماذا تتصرّف على هذا النحو؟ كان يتساءل بشيءٍ من الحذر. لقد حاولت شيكاكو أن تدفعه للزواج من يوكيكو وسعت، بالتالي، لإبعاده عن فوميكو. والآن، وقد تزوّجت الفتاتان فما الذي تجنيه، هي، من معرفة ردود فعله على هذه المسألة وحقيقة مشاعره؟ ذلك أنّها كانت لا تزال هناك، منكبّة على التفرّس في ملامحه مُترصّدةً لأعمق اختلاجات قلبه.

لوهلةٍ فكّر كيكوجي بإنارة الحجرة والرواق المسقوف: إذ بدا له أن موقفهما لا يخلو من فكاهة إذ يواصلان حديثهما في العتمة، كأنّ ما يجمع بينهما مشاعر ودّ هي أبعد ما تكون عن علاقتهما الفعلية! فأن تتدخّل فيما لا يعنيها كأن يعتني أو لا يعتني بالحديقة، أمرٌ لا يتعدّى، في نظر كيكوجي، مجرّد طريقة لها، فظّة وغير لائقة في المخاطبة على جاري عادتها، ولا يُعقل أن يقلق بشأنه على الإطلاق. إلاّ أن تكاسله، في الحقيقة، حال دون نهوضه وتخلّى، في النهاية، عن فكرة إنارة المكان.

وحتّى شيكاكو التي لم تكفّ منذ وصولها عن الزعيق والصراخ إذ رأت كيكوجي مستلقياً على أرضية الرواق في العتمة، لم تفكر في النهوض لتضيء المكان. شيكاكو التي ليس من عادتها أن تهدأ أو تكلّ لحظة واحدة في سعيها لإنجاز أدقّ الشؤون المنزلية مهما كانت صغيرة وتافهة... ألأنّها فقدت الرغبة في القيام بمثل هذه الأمور، تلك المرأة التي طالما أبدت استعدادها غير المشروط لخدمة العائلة، أتكون أقلعت عن رغبتها الآن وقد أصبح كيكوجي آخر المتبقّين منها؟ أم هي، ببساطة، وطأة الشيخوخة؟ أو ربّما أصبحت ترى أنّ هذه الأمور ما عادت تليق بمكانتها التي اكتسبتها كأستاذة لفنّ الشاي؟ كانت هذه الخواطر تتدافع في رأس كيكوجي حين قاطعتها شيكاكو بقولها:

- كلّفني أويزومي، تاجر التحف في كيوتو، بأن أُبلّغك أمنيته، قالت له بطلاقة. ففيما لو أردت بيع مجموعتك النادرة، فسيكون من دواعي سروره أن

يشتريها، ورجاني أن أبلّغك أمنيته هذه، إذ قد تكون لديك رغبة في تنظيم حياتك بطريقة مختلفة بعد أن فقدت الآنسة إينامورا، أليس كذلك؟ وقد لا تحافظ القطع الفنيّة النادرة على قيمتها في عينيك؟ وفنّ الشاي... كم سأشعر بالأسى، أنا التي طالما شغلتني هذه الأمور في حياة والدك، عندما سيأتي وقت لن أجد فيه ما أصنعه هنا. ولكنّ الحقّ يُقال إنّ التشاشيتسو لا ينعم بالتهوية إلاّ خلال زياراتي النادرة لك...

أصبح كلّ شيء واضحاً في عيني كيكوجي الذي بات يُدرك جيّداً غرض شيكاكو. لقد أفسد عليها خطة تزويجه من يوكيكو. لذلك لم تعُد تعنى بشأنه سوى أنّها ربّما كانت تطمع بالأرباح التي قد تجنيها من صفقة التحف النادرة. ولهذا الغرض أعدّت هذه الصفقة بمساعدة أويزومي في كيوتو. لا شكّ في أن الأمور جرت على هذا النحو. غير أن كيكوجي لم يشعر بالغضب حيال ما أدركه بل على العكس، أحسّ بشيءٍ من الارتياح. كأنّ عبئاً قد أزيل عن كاهله.

- يبدو لي هذا العرض مقبولاً ما دمت مصمّماً على بيع كل شيء بما فيه المنزل، قال، ولذلك سأفكر مليّاً في هذا العرض.

- وبتعاملك مع تاجر يعرف والدك جيّداً، قالت شيكاكو، فلن تكون إلاّ راضياً ومطمئنّ البال بالتأكيد.

قال كيكوجي في سرّه إنّها تعرفُ، أكثر مما يعرفُ هو نفسه بكثير، كلّ قطعةٍ من المجموعة، فمن المؤكّد أنّها أصبحت تعرف جيّداً نسبة أرباحها في هذه الصفقة.

وبحركة مفاجئة استدار نحو التشاشيتسو. كان الزهر الباذخُ الأبيض لشجرة كيوشيكوتو(*) يتألّق عند مدخل الجناح الصغير، مضمّخةً بعطرها سواد ليلةٍ حالكة لا ترى العين منها سوى ذلك البياض الغائم، ولا شيء آخر، حتّى الأطياف الأشدّ قتامة، لأشجار الحديقة الأخرى.

(*) نوع من أشجار الدرّاقن الضخمة، غنيّ بالزهر لكنّه غير مثمر.

II

كان كيكوجي يهمّ بمغادرة المكتب، بعد انتهاء دوام العمل، حين استوقفه رنين الهاتف.

ـ آللو؟

ـ أنا فوميكو، قال صوت ضعيف وبعيد.

ـ آللو، أنا ميتاني. . .

ـ أنا فو ـ ميـ ـ كو، قال الصوت الذي بدا أقرب وأوضح.

ـ نعم، الآن أسمعك بشكل أفضل.

ـ إني آسفة، بالفعل، لإزعاجك، قالت، ولكنْ كان عليّ أن اتصل بك لأبلغك اعتذاري. وإلاّ لفات الأوان.

ـ أوان ماذا؟

ـ لقد أرسلت لك رسالة ليلة أمس، ونسيت، في آخر لحظة، أن أضع عليها طابعاً بريديّاً.

ـ كيف؟ لا، لم استلمها بعد.

ـ كنتُ اشتريت عشرة طوابع، ثمّ وضعت الرسالة في علبة البريد. وبعد عودتي إلى المنزل تبينّ لي أنني ما زلت احتفظ بالطوابع العشرة! لا أعرف ما الذي صنعته بالضبط. ولذا أردت أن أعتذر قبل استلامك الرسالة.

ـ ولكنّ الأمر بسيط ولا يستحقّ كلّ هذا الانفعال! أمر تافه كهذا، قال كيكوجي وهو يحسب في سرّه أنّها تتصل به لتُعلمه بزواجها. آمل أن تكون الرسالة

تحمل لي أنباء طيّبة، على الأقلّ! أردف قائلاً.

ولكنْ الأرجح أن فوميكو لم تسمعه.

ـ ماذا؟ تابعت قائلة، حتّى الآن كان اتصالي بك يتمّ دائماً بواسطة الهاتف، ولم أكتب لك أبداً من قبل. . . لقد تردّدتُ حتّى آخر لحظة، إذا كان من اللائق أن أبعث لك برسالة، أرجو أن تفهم ما أقول: ولفرط ما تردّدت نسيت أن الصق عليها الطابع البريدي.

ـ أين أنت الآن؟

ـ في المحطّة الكبرى، وأتصل من مقصورة الهاتف العمومي. ويوجد رهط من الناس ينتظرون دورهم.

ـ من مقصورة عمومية؟ قال كيكوجي بشيءٍ من الدهشة قبل أن يعود إلى فكرته الأولى ويقول: أنا مدين لك بالتهاني!

ـ آه! حقّاً؟. . . أقصدُ، بلى، شكراً. . . ولكنْ كيف علمت بالأمر؟

ـ كوريموتو هي التي أخبرتني.

ـ أتقول الآنسة كوريموتو؟ كيف استطاعت أن تعرف؟ يبدو لي أنّ لا شيء يخفى عليها، بالفعل!

ـ ولكنْ أصبح بإمكانك الآن أن تتخلّصي أخيراً من فضولها، أليس كذلك؟. . . عندما اتصلت بك هاتفيّاً، في المرّة الأخيرة، كنت أسمع صوت المطر عبر الهاتف.

ـ بلى، هذا ما قلته لي. كنتُ آنذاك قد استأجرت غرفة في بيت إحدى صديقاتي وكنتُ حائرة في أمري لا أعرف إذا كان عليّ أن أخبرك أم لا. ولقد واجهت اليوم لحظات تردّد مماثلة.

ـ على أي حال، أفضّل ألف مرّة أن تزفّي إليّ النبأ الآن، فأنا أشعر بارتياح عميق. لأنني كنت حائراً، أنا أيضاً، بعد أن سمعتُ النبأ من كوريموتو:

ماذا أفعل، أأبعث إليك ببطاقة تهنئة أم لا.

ـ إنّه لمن المحزن حقاً أن تنقطع أخبارك عنّي بهذه الطريقة، قالت بصوتها الذي أصبح فجأةً مفعماً بالشجن والكآبة فذكّر كيكوجي بصوت السيّدة أوتا الواهن.

وإذ رأت أنه يلزم الصمت، أردفت قائلة:

ـ ولكنْ أنا أعلم، كان عليّ أن أبتعد مهما كلّفني الأمر، أعلم... [وبعد صمتٍ قصير]. إنها حجرة باتساع ستة حُصُر، متواضعة، اهتديت إليها يوم وفّقت بإيجاد عمل.

ـ ماذا؟

ـ إنّه لأمر شاق أن أباشر العمل في هذا القيظ الخانق.

ـ أجل، أدرك ذلك! وعلى الأخصّ لأنّك ما زلت عروساً بعد.

ـ ما الذي تقوله؟ عروس؟ أهذا حقّاً ما سمعت؟

ـ أجل، أتقدّم إليك بتهانيّ الحارّة. وأتمنّى لك ملء السعادة.

ـ لي أنا؟ أتقصد أنني أنا من تزوّج؟ أهي دعابة منك؟

ـ ألم تتزوّجي؟

ـ أنا؟ إنّه أمر غريب فعلًا!... كيف لك أن تصدّق بأنني أقوى على الزواج في مثل هذه الظروف بالذات؟... في الوقت الذي فقدت فيه أمي... والظروف التي رافقت وفاتها والتي تعرفها جيّداً!

ـ إذن...

ـ أهي الأستاذة كوريموتو التي أخبرتك بكلّ هذا الهراء؟

ـ أجل.

ـ ولكن، أيُعقل هذا؟ فأنا لا أفهم شيئاً بالفعل! وأنت، هل صدّقت أكاذيبها؟...

تفوّهت فوميكو بهذه العبارات وكأنّها تطرح السؤال على نفسها. وفجأة تمالك كيكوجي حيرته وقال بلهجة حازمة:

- لا يُعقل أن نستمرّ في هذا الحديث هاتفياً. فهل لي أن أوافيك؟

- أجل.

- حسناً جداً. سأوافيك على جناح السرعة إلى المحطة الكبرى. انتظريني هناك.

- ولكنْ، المسألة أنـ...

- أتفضّلين أن نلتقي في مكان آخر؟

- ذلك أنني لا أحبّ كثيراً أن انتظر في الشارع. سأوافيك إلى البيت، إذا كنت لا تمانع.

- إتفقنا. أتودّين أن نترافق في طريق العودة؟

- سيكون علينا، في هذه الحال، أن نلتقي في المدينة...

- مرّي بالمكتب إذا أردت.

- لا، أفضّل أن أذهب مباشرة إلى بيتك. إنّه أسهل الحلول.

- ممتاز. وأنا بدوري سأغادر المكتب فوراً. إن وصلت قبلي، ادخلي وانتظريني، على راحتك، في الداخل.

كان كيكوجي يقول في سرّه إن فوميكو ستصل قبله إذا استقلّت أوّل قطار. ولكنّه، في غمرة هواجسه، لم يفقد الأمل في أن يستقلّا معاً القطار نفسه. وحين وصل إلى رصيف المحطّة بحثت عيناه عنها طويلاً ولم يجدها.

عندما وصل إلى بيته كانت هناك بالفعل تنتظر قدومه.

أعلمته الخادمة بأنّ الفتاة تنتظره في الحديقة، فهرع كيكوجي إليها دون أن يمرّ بالمنزل.

وفي الحديقة كانت فوميكو جالسةً على حجر في فيء شجرة الكيوشيكوتـو الكبيرة المزدانة أغصانها بالزهر الأبيض. وبدا الحجر الذي جلست عليه رطباً عند جـوانبه السفلى لأنّ الخادمة كانت قد استأنفت، منذ زيارة شيكاكو الأخـيرة، ريَّ الحديقـة كلّ يوم قبل عودة سيّدها من عمله. فقد كان صنبور مياه الرّيّ لا يزال صالحاً.

تقـدّم كيكوجي في مشيـة مستقيمة نحـو الشجرة المـزهـرة التي بـدت بـراعمهـا البيضاء، إذ تداعبها نسائم المساء، وكأنّها تتوِّج رأس الفتاة. فشجر الكيوشيكوتو يتميّز عادةً بكثافة أغصانـه التي تنبثق منها أزهار ناريـة كأنّها مشـاعل صغـيرة: فيحسب ناظرُها أنّه أمام إحدى تجلّيات صيف قائظ. إلّا أن هـذه الشجرة بـالذات كـانت، لوفرة أزهارها البيضـاء المعطّرة البـاذخة، تشيـع جوّاً من الـطراوة. وكانت فـوميكو المستظلّة بفيئها العابق، ترتدي ثوباً قطنيـاً أبيض وقد طـرّزت ياقتـه وثنيات جيـوبه بعـروق زرقاء قـانية، والشمس المـائلة للمغيب تـرخي، عـبر الأغصـان، أشعتهـا الحمراء المذهّبة، فتتوهّج السماء أمام عيني كيكوجي.

ـ كم أنا سعيد لمجيئك! قال بمودّةٍ وقد اقترب منها.

بدت فوميكو وكأنّها تلفّظت ببعض الكلمات قبل أن يبادر إلى تحيّتها، كلمات غير مفهومة تفوّهت بها وهي تهمّ بالنهوض محنية الكتفين قليلاً، كأنّ المودة العفويـة التي قابلها بها كيكوجي قد أخجلتها قليلاً.

ـ لقد جئتُ لأنّك أذهلتني بما قلته لي هـاتفيّاً. وأردفت قـائلة: جئتُ لأثبت لك العكس.

ـ أتقصدين قضيّة زواجك؟ أؤكّد لك أنني، أنا نفسي، لم أتمالك المفاجأة.

ـ مفاجأة؟ ماذا تقصد؟ سألت فوميكو مُطرقة.

ـ أقصد أنّ المفاجأة كانت مضـاعفة: أوّلاً لسـماعي نبأ زواجـك المزعـوم وتاليـاً لسماعي منك أنّ النبأ كاذب.

ـ وقد فوجئت بالأمرين معاً؟

ـ ألا تعتقدين بأنّه ردّ فعل طبيعي؟ قال كيكوجي وقـد سبقها قليـلًا سالكـاً ممرً

الحجارة الذي يُفضي إلى الرواق المسقوف. لنصعد من هنا، قال. كان ينبغي أن تدخلي لا أن تنتظري في الخارج!

جلسا على أرضيّة الرواق وراح كيكوجي يشرح لها الموقف:

- كنتُ مُستلقياً هنا أنعم بقسطٍ من الراحة منذ بضعة أيام بعد عودتي من إجازة قصيرة حين دخلت عليّ شيكاكو، وكان الوقتُ مساءً.

نادته الخادمة من الداخل، فعلى الأرجح أنّها تريد أن تستوضح منه بشأن العشاء الذي كان قد أوصى عليه هاتفياً قبل مغادرته المكتب. وانتهز المناسبة لتبديل ثيابه فارتدى كيمونو من الجوفو الأبيض.

وبدا أن فوميكو أيضاً قد انتهزت فرصة غيابه لإصلاح زينتها. وانتظرت عودة كيكوجي لتسأله:

- بالمناسبة، ما الذي قالته الآنسة كوريموتو بالضبط؟

- قالت: إنّك تزوّجت، ولم تعلّق على الأمر.

- وصدّقتها على الفور؟

- وما الأسباب التي تدعوها إلى الكذب بهذا الشأن؟

- ألم يراودك مجرّد شكّ في ما تقول؟

كانت دموع الفتاة تترقرق بين أهدابها وقد ملأت عينيها الواسعتين السوداوين، فعاجلته بقولها:

- كيف لي أن أفكّر في الزواج في مثل هذه الظروف؟ أكنت تحسب حقّاً أنني قادرة على ذلك؟ بعد كلّ الأحزان والأشجان التي كابدناها، أمي وأنا. . . في غمرةِ هذا الأسى الذي لا أرى نهاية له بعد!

عندما سمع كيكوجي صوتها، حسب لوهلةٍ أن الأمّ لا زالت على قيد الحياة وأنّها تجلس قبالته.

- إنّها إحدى خصال ضعفنا، أقصد أمّي وأنا، إذ لا نعرف حدّاً لثقتنا

بالآخرين. فما أن نشعر بتفهُّم الآخر حتّى نمنحه ثقتنا كاملةً بلا حسابٍ أو شرط، أوليس محض وهم؟ أوليست محض سراب، انعكاسُ ذات النفس كمن يتمرأى في صفحةِ الماء؟ قالت فوميكو بصوتٍ غلبه النحيب.

بعد هنيهة صمت، قال كيكوجي مُستأنفاً سؤاله:

ـ في آخر حديث لنا كنتُ أنا مَنْ يسأل إذا كنتِ تعتقدين فعلاً بأنني أريدالزواج! أتذكرين؟ يوم أمطرت السماء بغزارة.

ـ أتقصد يوم السيول، حين امتلأت السماء بالبروق الرهيبة والرعود؟

ـ أجل، ذلك اليوم. وها أنت الآن تردّدين بالحرفِ القول نفسه تقريباً.

ـ أوه! لا! ليس الأمرُ مماثلاً على الاطلاق!

ـ لكنّك ردّدت على مسامعي مراراً أنني سأتزوّج، قال كيكوجي بإصرار.

ـ هذا صحيح، غير أنّ موقف كلّ منّا يختلف عن الآخر، أكّدت فوميكو وقد نظرت إليه بعينيها الدامعتين.

ـ الموقف. ماذا تقصدين؟

ـ أجل أقصد موقفك وموقفي ـ إنّهما مختلفان. ولكن بدل كلامنا على الموقف، ربّما الأجدر أن نتكلّم على ذلك الحيّز المُعتم من القدر. . .

ـ الإحساسُ بالخطيئة، أهذا ما تريدين قوله؟ لكنّه نصيبي منه أيضاً.

ـ لا! صرخت وهي تهزّ رأسها بعنف. دمعة، دمعة واحدة سالت من عينها اليسرى على صُدغ فوميكو التي لم تلبث أن تمالكت نفسها لتوضح كلامها:

ـ إنّ الخطيئة التي تتكلّم عليها حملتها أمّي معها إلى أعماق الموت. ثمّ أنا لا أرى أنّها كانت خطيئة، بل أعتقد بأنّها كانت آلامها، لا أكثر.

أطرق كيكوجي.

ـ قد لا تُمحى الخطيئة أبداً، أضافت. ولكنّ الألم والأحزان قابلة للنسيان.

– حين أسمعك تتكلمين على الجانب المعتم فإنّ ما يُعتم فعلاً هو موت والدتك، إذ يبدو لي. . .

– كان ينبغي أن أتكلّم على أعماق الألم، استدركت فوميكو. هذا ما وددتُ قوله.

– أعماق الألم. . . قال كيكوجي الذي أراد أن يقول: «إنّها أعماق الحب»، ولكنّه امتنع عن اتمام عبارته في اللحظة الأخيرة.

– من جهتك أنت كان هناك عرض الزواج من يوكيكو، وهذا ما يجعل الفرقَ كبيراً بين موقفينا! أردفت فوميكو التي كانت تبدي إصراراً لا يلين على ردّ نقاشهما إلى أرض الواقع. ورأت الآنسة كوريموتو أنّ وجود أمّي يُعرقل هذا الزواج. ولا شكّ في أنّها كانت تخشى فعلاً من أن أكون، أنا نفسي، عقبةً لا بدّ من تذليلها الأمر الذي دفعها إلى اختراع قصّة زواجي. ألا توافقني الرأي؟

– لقد أكّدت لي في الوقت نفسه أنّ الآنسة إينامورا قد تزوجت هي أيضاً!

لوهلة بدت الحيرة على وجه فوميكو، ولكنْ سرعان ما هزت برأسها مؤكّدةً:

– هذا غير صحيح! غير معقول. . . إنّها كذبة أخرى من أكاذيبها وأنا لا أصدّقها. متى تمّ لها ذلك؟

– الزواج؟ أوه! منذ وقت قريب.

– لا، لا يُعقل أن يكون النبأ صحيحاً. . . أنا واثقة مما أقول!

– أخبرتني كوريموتو أنّكما، يوكيكو وأنت، قد تزوّجتما في الوقت نفسه تقريباً، قال كيكوجي بصوت مرتفع، ولهذا السبب صدّقت قصة زواجك. . . ولكنْ يبقى أنّ قصة زواج يوكيكو قد تكون صحيحة، مَن يدري؟

– لا، أؤكد لك: لا أحد يتزوّج في أوج الصيف. فمن يُطيق ارتداء ملابس مزدوجة في غمرة القيظ الخانق دون أن يشعر بالضيق والارتباك. لذلك لا أحد يتزوج في فصل الصيف.

ـ أنت محقّـة بـلا ريب. ألا يحـدث أبـداً أن تقـامَ شعـائـر الـزفـاف في فصـل الصيف؟

ـ فيـما ندر. فقـد جرت العـادة أن تُرجـأ كـل احتفـالات الـزفـاف إلى فصـل الخريف.

وفجأة سالت الدموع ـ من يدري لماذا؟ ـ من عيني فوميكو. كانت الفتاة مطرقةً تحدّق في البقع التي تحدثها دموعها المتساقطة على حجرها.

ـ ولكن لماذا تروي الآنسة كوريموتو مثل هذه الأكاذيب؟

ـ هذا ما أجهله! وبـأية حـال لقد أفلحت في خـداعنا! قـال كيكوجي دون أن يكفّ عن التساؤل عن السبب الذي يدفع فوميكو إلى البكاء الآن.

المؤكّد أنّ قصة زواج فوميكو هي محض اختلاق.

ولكنْ قد تكون شيكاكو قد اختلقتها، تلك الكـذبة، بـالذات لأنّ يـوكيكو قـد تزوّجت فعلاً ولأنّها تريد أن تبعده، بأي طريقة، عن فوميكو؟ على الأقلّ، هذا ما كان كيكوجي يحاول أن يقوله في سرّه دون أن يجد مثـل هذا التفسـير مقنعاً تمـاماً. فهو لا يستطيع أن يمنع نفسه من الارتياب بحقيقة زواج يوكيكو.

ـ عـلى أي حال، قـال مُستنتجاً، مـا دمنا لا نعـرفُ يقيناً مـا إذا كانت الآنسـة إينامورا قد تزوّجت أم لا فلن يكون بإمكاننا أن نعرف إلى أي حدّ وصلت الآنسـة كوريموتو بدعابتها.

ـ دعابة؟ أتسمّي ما فعلته دعابة؟

ـ أقصدُ، إنها طريقة في الكلام... حتّى الآن.

ـ لو لم أتصل بك اليوم هاتفياً لمكثت على اعتقادك بأنني تزوجت! فأنا أجـدُ أنّها كدعابة من أسوأ ما شهدتُ من هذا النوع. إنها، حقّاً، لدعابة لئيمة!

نادت الخادمة العجوز كيكوجي للمرّة الثانية، ثمّ عاد بعد لحظة حامـلاً رسالـةَ في يده.

ـ لقد وصلت رسالتك للتوّ، قال: الرسالة التي لا تحمل طابعاً بريدياً.

وهمّ بفتحها ولكنّ فوميكو سارعت إلى التدخل:

ـ لا، لا! أرجوك، لا تقرأها!

ـ لماذا؟

ـ لأنني لا أريدك أن تفعل! أعدها إليّ...

وانحنت فوميكو، دون أن تنهض، لتأخذ الرسالة منه.

ـ أعدها إليّ، أرجوك.

بحركة مفاجئة أخفى كيكوجي الرسالة وراء ظهره. فانحنت عليه أكثر سعياً لالتقاطها باليد اليمنى وقد اتكأت بغير انتباه على ركبة كيكوجي بيدها اليسرى. أبعد كيكوجي الرسالة عن متناولها وكادت فوميكو، بيديها الممدودتين، أن تقع عليه، إذ فقدت توازنها لشدّة انحنائها إلى جهة اليمين. ولشدّة انحنائها لامس وجهها نحر كيكوجي، وكانت موشكة على الوقوع تماماً عليه لو لم تستند إلى ركبته بيدها اليسرى مما أتاح لها أن تتمالك سقطتها بحركة بالغة الرشاقة، فتداركت نفسها وأرجعت جذعها إلى الوراء. ومع ذلك كأنّ كيكوجي لم يشعر بثقل يدها بالكاد. كانت بخفّة لمسة! فكيف استطاعت أن تنهض على هذا النحو كأنّها لم تمسّه في حين أنّها كانت موشكةً على السقوط بكامل ثقلها؟

لقد أذهلت رشاقتها كيكوجي الذي كان يتوقع، بين لحظة وأخرى، سقوطها عليه بكامل ثقلها، وكاد أن يصرخ. وأحسّ على الفور أن كيانه يستسلم لذلك الحدس المثير بالأنوثة والانفعال حيال ذلك الحضور الأنثوي، حيث كان يستعيد، رغماً عنه، حضور السيّدة أوتا بالذات وكلّ بوارق سحرها.

استطاعت فوميكو أن تنتصب واقفةً في اللحظة التي كان يحسبُ فيها أنّها ستقع بين ذراعيه. ولكن كيف استطاعت أن تفعل؟ فقد واتتها القدرة على تجنب السقطة في الوقت الذي كانت تسقط فيه؟ فبأي رشاقة لا توصف أفلحت في النجاة؟ كان في تلك الواقعة سحرٌ ما، قدرة ما لا يُدرك سرّها إلاّ في الركون إلى أعمق ما في

غريزة الأنثى. ذلك أنّ الفتاة بدت وكأنّها تبدّدت عطراً، وفي الـوقت الذي اعتقـد فيه بأنّه سيتلقّاها بين ذراعيه لم ينل منها إلّا عبقاً في تنسّمه لهذا الفوحان الدافىء.

إنّ هـذا العبق الذي تضـوّع من جسد الفتـاة هزّ كيـان كيكوجي. لقـد عملت فـوميكو طـوال ذلك النهار الصيفي، وبتنشقه لعبق جسـدها كـما فعل منـذ قليـل، استعاد كيكوجي عطر السيّدة أوتا الذي أغرقه بنشواته، واستعاد لذة عناقها.

أخذت فوميكو الرسالة واستدارت قليلاً لتمـزّقها نتفـاً صغيرة. فلمـح كيكوجي على عنقها وذراعيها قطرات رقيقة من العرق.

حـين أوشكت على السقـوط عليه امتقـع لونها فجـأة، لكنّ وجهها سرعـان مـا استعـاد لونـه، وتورّد مـا أن أفلحت في تمالـك نفسها. وممـا لا شكّ فيـه أن عنف انفعالاتها في هذا القيظ، هي التي ندّت جسدها بهذا التعرّق الخفيف.

III

كان الطعام الذي أوصى كيكوجي عليه من مطعم مجاور عاديّاً جداً.

وكان كوب الشينو الصغير هناك أيضاً وضعته الخادمة، كعادتها كلّ يوم، أمام الموضع الذي يجلس فيه كيكوجي.

وكان أوّل ما لاحظه كيكوجي. أمّا فوميكو فقد لاحظت وجوده هي أيضاً وسألت:

ـ أهو الكوب الذي تستعمله عادة؟

ـ أجل.

ـ كم أنا خجلة حقاً، قالت في نبرة يهدّجها الارتباك، ولكن دون أن تلاحظ أنّ كيكوجي قد يكون أشد ارتباكاً منها. كم أنّبتُ نفسي منذ ذلك الحين، قالت موضحةً، لأنني أعطيتك هذا الكوب. وهذا أيضاً ما كتبته لك في رسالتي.

ـ ولكن لماذا تؤنبين نفسك؟

ـ ذلك... أسألك الغفران لأنني أهديتك مثل هذه القطعة المجرّدة من أي قيمة فنيّة.

ـ مجرّدة من أي قيمة فنية، أتقصدين هذا الكوب؟ بل على العكس!

ـ لا، إنّه ليس من نوع الشينو الثمين، والبرهان أن والدتي كانت تحفظه للاستعمال اليومي.

ـ لا أدّعي الخبرة في مثل هذه الأمور، ولكنْ أعتقد، برغم ذلك، أن هذه القطعة ذات قيمة استثنائية، أكّد لها كيكوجي رافعاً الكوب بين يديه لتأمّله.

كانت فوميكو لا تزال مصرّة على موقفها:

ـ توجد أنواع أفضل بكثير من الشينو! قالت. وعندما تستعمل هذا الكوب كيف لا تفكّر في الأنواع الأخرى على سبيل المقارنة؟ وإن فعلت فستجد أنها أجمل بكثير!

ـ لا أعتقد بأنّ هناك قطعة شينو أخرى في مجموعتنا.

ـ ولكنّك سترى بعضاً منها لدى آخرين حتّى لو كنت لا تملكها. آه! وكم يكون محزناً أن تجد الكوب الذي تمتلكه أدنى قيمةً من الأكواب الأخرى. . . أقصد أمي وأنا. . .

ارتعش كيكوجي لسماعه هذا إلّا أنّه سارع في الإجابة:

ـ بما أنني أزداد ابتعاداً عن مزاولة فنّ الشاي فلن أحظى بفرصة التأمّل في الأكواب الأخرى.

ـ مَن يدري؟. . . قد يحدث هذا بمحض المصادفة. . . هذا بالإضافة إلى أنّك لا بدّ رأيت، في المناسبات التي سنحت من قبل، عدداً من الأكواب الأجمل والأثمن.

ـ إذا كنت تعنين فعلاً ما تقولين، فهذا يعني أنّ لا أحد يستطيع اليوم أن يقدّم هديّةً لأحد إن لم تكن هديته تحفة فنيّة!

ـ بلى، هذا بالضبط ما كنتُ أودّ قوله، أجابت فوميكو وقد ثبّتت أنظارها في عينيه. لقد فكّرت طويلاً، ولهذا السبب طلبت منك في رسالتي أن تحطّم هذا الكوب وتتخلّص من أجزائه.

ـ أن أحطمه؟ هذا الكوب؟ قال بدهشةٍ محاولاً أن يخفّف من حدّة فوميكو. إنّه كوب صُنع، على ما أعتقد، في أعرق أفران خزّافي هذا النوع منذ ثلاثة أو حتّى أربعة قرون من الزمن! قد يكون صمّم في الأصل لأن يكون مجرّد قدح صغير لا صلة له، قريبة أم بعيدة، بالشاي. غير أنّ قروناً عديدة انقضت الآن وهذا الكوب لا يستخدم إلّا ككوب شاي. وعدد كبير من الأساتذة حفظوه وتناقلوه بقدر

كبير من العناية. وكذلك الأمر هناك من استعمله، كبعض الهواة بالطبع، ككوب يُستخدم في الأسفار ونقلوه في الحقائب إلى أماكن بعيدة، من مكان إلى مكان، وعرّضوه للمهالك. وبهذه الطريقة حصلنا عليه. أوه! إنها ليست قطعة يُمكن تحطيمها ببساطة لنزوةٍ منا!

. . . فكيف بالأحرى وحافّة هذا الكوب الثمين كانت تحمل، كما أخبرته فوميكو نفسها، أثر شفتيْ والدتها، وأثر حمرتهما. أثر لا يمحى، قال: أثر لا تمحوه مهارات الغسل، كما من شأن السيّدة أوتا أن تسرّ لابنتها. وبالفعل، لم تَزُل هذه البقعة التي تكاد تكون غير مرئية عندما أراد كيكوجي، هو نفسه، حين أصبح الكوب بحوزته، أن يغسله بعناية. طبعاً لم تكن العلامة بلون أحمر الشفاه الواضح، بل مسحة داكنة خفيفة يشوبها أثرٌ قرمزي يكاد لا يُرى. من يراه يحسب، بلا ريب، أنّه أثر باهت لأحمر شفاه، وإن كان الأرجح أنّ ما يُرى فيه ليس سوى التماع لون الشينو الطبيعي المائل للحمرة. فما السبيل للتيقن من هذا الأمر؟ فمنذ أن استخدم هذا الكوب لأغراض فنّ الشاي كم شفة لامسته، ومن جيل إلى جيل، وفي نفس الموضع من حافّته: أتُراهُ كان مستحيلاً أن تترك هذه الشفاه أثراً عليه؟ ومن بين هذه الشفاه جميعها، أليست السيّدة أوتا التي حفظت الكوب لاستعمالها اليومي، هي التي مسّت حافته بشفتيها كل يوم؟ أمّا عن وجهة استخدام كوب الشينو في فنّ الشاي، فكان بوسع كيكوجي أن يسأل دائماً إذا كانت السيّدة أوتا هي التي كرّست استخدامه على هذا النحو أم أنّ الأمر يعود إلى والده، وهو الأرجح، الذي صمّم على استعماله في محافل الشاي. . .

ثمّ راح يفكّر في كوبيْ الريونيو، الكوب الأسود والكوب الأحمر، مُتسائلاً ما إذا كانا يُستخدمان في لقاءات العاشقين الحميمة: الكوب الأحمر، الأكثر دقّة واستطالة، للسيّدة أوتا، والأسود، في طابعه الذكري الغالب، لوالده؟

بلى، الأرجح أن والده هو الذي حثّ السيّدة أوتا على استخدام ميزوساشي الشينو لا كإبريق ماء لمجالس الشاي بل كمزهرية للورود: مزهريّة اعتادت أن تنسّق فيها باقات القرنفل والزهر. والأرجح أيضاً أنّه هو الذي حثّ عشيقته على جعل كوب الشينو للاستخدام اليومي وليس فقط لمجالس فنّ الشاي. وفي إطار

هذا العالم الذي نسّقه بما يشتهي هو، داخل هذا العالم الذي استبدل عناصره بما يتلاءم وأناقة عشيقته وسحرها، في هذا المناخ المتبدّل بأناقة، والذي كان يحتفظ، هو وحده، بمفتاحه، بلى، في مثل هذا الجوّ المتناسق كان يستغرق في تأمُّلٍ لذيذ لجمال حبيبته، لجمال السيّدة أوتا.

لقد أودى الموت بهما كليهما وأصبح إناء الشينو والكوب الصغير بحوزة كيكوجي. وحتى فوميكو جاءت إليه وها هي موجودة في بيته.

ـ ليست نزوة، قالت فوميكو مُعترضة، ولكنّي أريد فعلاً أن تُحطّمه. فأنا لم أفكّر في إعطائك، لاستكمال الطقم، قطعة الشينو الأخرى التي نمتلكها إلاّ بعد أن لاحظت مقدار بهجتك حين أهديتك الميزوساشي. وما أن فعلت حتى رحت ألوم نفسي وما زلت نادمة حتّى الآن.

ـ الحقيقة أنّ قطعة ثمينة مثل هذه لا ينبغي أن تستخدم يوميّاً. فبذلك نعرّضها لما ليس في الحسبان!

ـ ولكن يوجد ما هو أفضل منها بكثير كأكواب شينو! ولا أستطيع إلاّ أن أشعر بالأسى، إذا كنت تدرك ما أقول، عندما أجدك تفكّر في قطع أخرى، أجمل وأثمن، وأنت لا تملك سوى هذه بين يديك.

ـ دعكِ من هذا الكلام! في النهاية لا يستطيع واحدنا دائماً أن يقدّم فقط ما هو أثمن من أي شيء آخر!

ـ أنا لا أقول. . . إنما يتعلّق الأمر بالشخص الذي تُقدّم له الهديّة وبالمناسبة.

ذُهل كيكوجي لجواب فوميكو. أتقصد إذن، أنّ لا شيء يليق بذكرى والدتها، وبصورتها هي أيضاً إذ تُحفظ في أعماق قلبه، سوى تحفة ذات قيمة فنية رفيعة؟ كان في استطاعته أن يفهم جيّداً شعور الفتاة التي أرادت أن تقرن ذكرى والدتها بأرفع التحف الفنيّة قيمة وذوقاً. وإنما كانت تستجيب لمثل هذا الإحساس الدفين في أعماقها عندما أهدته، بتلقائية بالغة، ميزوساشي الشينو: تلك التحفة التي، بمادتها المثيرة وجنباتها المتوهجة الغامضة، كأنها تنضح بدفء الحياة برغم برودتها الساكنة كوعاء بلا حياة، لم تكن تثير فيه فقط ذكرى السيّدة، بل تحيي صورتها في صميم قلبه كأبلغ ما تكون الإثارة وأشدّ ما تكون.

بلى، كان إناء الشينو يمثلُ لناظريه في كماله المطلق الذي لا يضاهى. وبفعل حضوره، بفعل سطوته المتقنة التي لا تُردّ، كان يجد نفسه عائشاً في عالمٍ من النقاء الجمالي الأمثل حيث لم يبق ظلٌّ لعتمة، أثرٌ لسواد الخطيئة المقيم وهواجسها، لم يبق ظلّ.

وفي تأمّله لهذه التحفة الخالصة استغرق كيكوجي في ذكرى السيّدة أوتا التي استطاعت أن تصل، هي أيضاً، إلى ذروة ما في الكمال وبدا له أنّها، هي أيضاً، كانت تحفة للجمال الأنثوي. وفكّر أن لا شُبهة دنسٍ أو تشوّه، ولا شُبهة تلبُّدٍ أو مقت من شأنها أن تخالط الجمال. فالتحفةُ، تعريفاً، خالية من أي شائبة.

عندما اتصل بفوميكو هاتفياً، في ذلك اليوم العاصف المطير، أسرّ إليها أنّ استغراقه في تأمّل إناء الشينو يوقظ في أعماقه الرغبة في أن يراها. واستطاع، يومذاك، أن يبوح لها بذلك لأنّه كان يتصل هاتفياً. وعندئذٍ كلمته فوميكو على قطعة الشينو الأخرى التي كانت تملكها وقد صمّمت على تقديمها له هديّةً.

وعلى أيّ حال قد لا يكون كوب الشينو تحفة فنيّة إذا ما قورن بالميزوساشي. . . وبتوصّله إلى هذا الاستنتاج الذي أعاده إلى بداية شروده، استأنف كيكوجي حواره معها:

- أذكر أن والدي كان يحتفظ بصندوق خاص لطقم الشاي يستخدمه في أسفاره، وأنا واثق من أنّه لم يضع فيه كوب الشينو هذا ولو مرّة واحدة!

- أي نوعٍ من الأكواب كان يحمل فيها؟

- لست أدري. فأنا لم أرها من قبل.

- أتسمح لي برؤيتها؟ قالت فوميكو. فأنا واثقة من أنّ الكوب الذي كان والدك يستخدمه في أسفاره من نوعية أفضل بكثير. وإذا تبيّنَ لك أنني على حق ستسمح لي بتحطيم هذا الكوب، أليس كذلك.

- أنت تثيرين فيّ الرعب! قال كيكوجي في محاولةٍ منه للمراوغة.

فيما كانا يتناولان الفاكهة بعد فراغهما من الطعام، أصرّت فوميكو وهي تنزع

برشاقة بزور البطيخ الأحمر على رؤية كوب الأسفار. طلب كيكوجي من الخادمة أن تفتح التشاشيتسو ولم يلبث أن خرج بنفسه إلى الحديقة. كان يريد أن يذهب بمفرده لإحضار الكوب دون أن يبطىء في العودة، ولكنّ الفتاة لحقت به.

ـ لا أعرف حتّى أين وُضِع هذا الصندوق. ربّما ينبغي أن تُسأل كوريموتو عنه: فهي تعرفُ أكثر مني! قال مُلتفتاً نحوها.

وقفت فوميكو تحت شجرة الكيوشيكيتو المزهرة. ولم يكن بوسع كيكوجي أن يرى منها سوى قدميها اللتين بدتا غريبتين بخفيّ الجيتا فوق جوربين على الطريقة الغربيّة.

عثر على صندوق طقم الشاي في إحدى خزائن الميزويا وما لبث أن عاد إلى ردهة الصالة واضعاً الصندوق أمام الفتاة التي ركعت أرضاً. انتظرت قليلاً ريثما يفتحه وإذ رأته لا يحرّك ساكناً مدّت يديها نحو الصندوق.

ـ أتسمح؟ سأفتحه أنا، قالت.

ـ يا للغبار! صرخ كيكوجي وقد رفع الفوطة التي تغطي الصندوق وابتعد لينفضها عند العتبة. وحين عاد قال لها: لقد وجدت صرّاراً ميتاً على أحد رفوف الخزانة وقد اجتمعت حوله أعدادٌ من الحشرات القذرة.

ـ ولكنّ حجرة الشاي نظيفة جدّاً، لاحظت فوميكو.

ـ أجل، لقد قامت كوريموتو بتوضيبها منذ بعض الوقت... في ذلك المساء، يوم جاءت لتُعلمني بزواجك، وزواج الآنسة إينامورا... إلاّ أنّ الحجرة كانت معتمة ولا بدّ أنّها لم تنتبه إلى الصرّار في الخزانة.

كانت فوميكو قد أخرجت جراباً صغيراً من الصندوق، بدا أن كوب الأسفار قد لُفَّ به، وانهمكت أصابعها الرقيقة بفكّ رباط الحرير وقد حنت جذعها إلى أقصى ما تستطيع.

لاحظ كيكوجي، في جلستها الجانبيّة، أنّ كتفيها الممتلئتين الجميلتين تتضاءلان حين تنحني إلى الأمام، ومرّة أخرى أذهلته رقّة عنقها الرائعة.

ومرّة أخرى رأى فمها المزموم لجهدٍ تبذله، وشفتها السفلى المنتفخة قليلاً وكأنّهما يشكّلان تفصيلاً ناتئاً في رسم مثير. وكم استحسن أيضاً دقة ارتسام أذنها الشهيّة الاستدارة.

ـ إنّه كوب كاراتسو! قالت بعد أن استدارت لتنظر إلى كيكوجي الذي جاء وجلس بجانبها.

وضعت الكوب على الحصير.

ـ يا للروعة! قالت بدهشة.

كان كوبَ كاراتسو صغيراً، مستطيلاً وقليل الاتساع كالكوب الآخر، يصلح في استعماله لتذوّق أفخر أنواع الشاي الأخضر، كما يصلح لاستعمال يومي لأكثر الأنواع شيوعاً.

ـ يا لأناقة الشكل، يا للمظهر الأخّاذ! قالت فوميكو بإعجاب كبير. إنّه من طراز أرقى بكثير من طراز كوب الشينو.

ـ لا تجوز المقارنة بين الكاراتسو والشينو، قال كيكوجي مُعترضاً. فهما نوعان مختلفان تماماً.

ـ يكفي أن تضع الكوب بجوار الآخر، أكّدت فوميكو، وسوف ترى: إنّ الفرق بينهما يبدو جليّاً للعيان، ولا سبيل لإنكاره!

مفتوناً بذلك السحر الخفي الذي كان يُشيعه الكاراتسو، أمسك كيكوجي بالكوب ووضعه على ركبته لكي يتأمّله على سجيّته. وبعد هنيهات سأل فوميكو إذا كان من الأفضل أن يذهب إلى البيت لإحضار كوب الشينو الصغير.

ـ لا، لا تتعب نفسك، سأذهب أنا! سارعت فوميكو إلى القول ثمّ نهضت وغادرت الحجرة.

الشينو والكاراتسو، وضعا الكوبين جنباً إلى جنب. ثمّ التقت نظراتهما وغاصت إلى أعماقهما، ولكنّها سرعان ما كانت تعود إلى تأمّل الكوبين.

عندئذٍ أحسّ كيكوجي بشيء من الارتباك وسارع إلى مداراة خجله بالقول:

ـ إذا ما أمعنّا النـظر فيهما هكـذا جنباً إلى جنب، نتبـيّن، بلا أدنى ريب، أننـا أمام كوب مذكّر وكوب مؤنّث. . .

اكتفت فـوميكو التي عجـزت عن التفوّه بكلمـة واحدة بـأن وافقت بحركـة من رأسها.

أحسّ كيكوَجي بارتباكٍ غريب للوقع المفاجىء الذي أثارته كلماته فيه.

كـان كوب الكـاراتسو الخـالي من أي زركشة يميـل إلى أزرق باهت لا فـروقات فيه، تنعكس من خلاله، هنا وهنـاك، أطياف حـارّة من الأحمر القـاني الذي يبـدو غالباً وإن كان غير بـارز. كان شكـل الكوب القـائم على قـاعدة تميـل إلى الاتساع يُكسبه مظهراً من التوازن التام والألق النافذ.

ـ يبدو أن والدك كان يؤثر هذا الكوب ولذا كان يحرص على أن يحمله معـه في أسفاره. وعلى أي حال أنا أرى أنّه من القطع التي تنسجم وطباعه.

مما لا شكٍ فيـه أنّ مثل هـذا الكلام لا يخلو من مجـازفة، ولكنّ فـوميكو لم تكن لتدرك هذا الأمر.

أمـا كيكوجي فلم يجـرؤ من جهتـه أن يـذهب إلى حـدّ القـول إنّ كـوب الشينـو ينسجم، على نحو مماثل، وطباع والدة فوميكو. ومع ذلك كان الكوبـان، جنباً إلى جنب، يبدوان وكأنّهما روحا والد كيكوجي ووالدة فوميكو.

كانت هاتان القطعتان اللتان تعودان إلى ثلاثة أو أربعة قرون من الزمن تبـدّدان كلّ خاطرة مكدّرة من الذهن،وتصونان القلب من كلّ ما يدنّس نقـاءه. وكان زخم الحيـويّة التي تنبثق منهـما يُشيع أثـراً مباشـراً ومحسوساً،حتّى يكـاد يـوقظُ نـوعـاً من الانفعال الشهوي.

وكـان كيكوجي لا يشعـر فقط بأنّـه يقف في حضرة روح والـده وروح السيّـدة أوتا، بل كان يبدو له أيضاً أنّ روحيهما قد تجسدتا في المظهر الأكمل الذي يرجو أن يكون لهما ولو في الحلم. فحضور هـذين الوعـائين وحقيقتهـما المحسوسة، كانـا من القوّة بحيث بدا له حضور فـوميكو التي تجلس قبـالته وبينهـما الكوبـان، وكأنّـه من

طبيعة الأمور العادية، والتي لا يشوبها أدنى إحساسٍ بالذنب.

كان في السابق، خلال الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة السيّدة أوتا، قد قال لفوميكو إن وجودهما معاً في أي مكان أو مناسبة، أمرٌ غير لائق أو مستحب. ولكنّ إحساسه بالذنب وخوفه بل رهبته إزاء خطيئته قد امّحت تماماً وكأنّها نالت غفرانها من ألق الطين ونقاوة القشرة التي تغطي كوبي الكاراتسو والشينو. مذهل! همسَ كيكوجي وكأنّه يتحدّث في سرّه. ففي الحقيقة لم يكن والدي من طينة أولئك الذين يولعون بالفن كهواية ولمجرّد الاستجابة لبعض الميول الجمالية البحتة. وأسأل نفسي الآن عمّا إذا كان لم يبحث في جمعه لهذه القطع الثمينة بسحر كمالها ونقاوتها عن عزاءٍ ما لجبه الخطيئة وعن ملاذٍ يقيه عذابات الضمير.

– ماذا؟ ماذا تقول؟

– هذان الكوبان، حين يستغرق النظرُ في تأملهما يُصبح المرء عاجزاً تماماً عن تذكّر الأخطاء أو الخطايا التي ربّما ارتكبها من كان يمتلكهما في السابق. فالزمن الذي عاشه والدي ليس أكبر من حدثٍ تافه وبسيط في حساب الزمن المذهل والمديد الذي شهدته هذه التحف. . . هذان الكوبان. . .

– ولكنّ الموتَ قريبٌ جداً منّا! لدرجة يثيرُ معها الرعب في روعنا، أجابته فوميكو. لقد توصّلت إلى القناعة بأنّ تشبُّثي طوال هذه المدة بموت والدتي ليس سوى خطأ أقترفه، في الوقت الذي أجد فيه الموت قريباً مني حتّى أكاد أشعر بأنّه يلامس قدميّ. وأنا أحاول بكلّ ما ملكتُ من قوّة أن أنجو من شباكه.

– أنت محقة، قال كيكوجي. لفرط ما نتشبّث بالموتى ينتهي الأمر بواحدنا لأن يحسب أنّه، هو نفسه، غير موجود.

في تلك اللحظة دخلت عليهما الخادمة العجوز وفي يدها المغلاة مليئةً بالمياه الساخنة. فحين رأت أنّهما تريّثا طويلاً في جناح الشاي، لا بدّ أنّها اعتقدت بأنّهما في حاجة للمياه الساخنة لإعداد الشاي.

جازف كيكوجي باقتراحه عليها أن تُعدَّ لهما الشاي وفق طقوس شاي المسافرين في كوبي الكاراتسو والشينو الماثلين أمامهما.

لم تلبث فوميكو أن وافقت، طائعةً، بحركةٍ من رأسها وهمست:

ـ قبل أن نعمد إلى تحطيم كوب الشينو أراك تمنحه حظوة أن يُستخدم لمرّةٍ أخيرة. . .

تناولت عود شازن من الصندوق ودلفت إلى الميزويا لتغسله.

كان النهار الصيفي لم يُعتم بعد.

وبينما كانت فوميكو تسحق الشاي في الكوب الصغير بواسطة عود الشازن، قالت له:

ـ شاي مسافرين، إذن. . .

ـ كما يُعدُّ خلال الأسفار، أجل. هل وصلنا إلى النزل؟

ـ لا، ليس بالضرورة. ربّما لا نزال على ضفة مياه جارية أو ربّما عند قمّة جبل. . . وكان علينا أن نستخدم مياهاً عذبة كأننا نملأ الإبريق بمياه ينبوع صادفناه هناك في مكان ما من البرّية. . .

وحين سحبت الشازن من الكوب رفعت عينيها السوداوين ورمقت كيكوجي بنظرة خاطفة ثمّ عادت وانكبّت على الكوب تديره على مهل بين كفيها(*).

كان كيكوجي يحدّق بالكوب بنظرات ثابتة فرآه يقترب منه ويهبط نحوه ثمّ يجثم على الحصير أمام ركبتيه. وأحسَّ في أعماقه كما لو أن فوميكو هي التي تنحني عليه.

كانت وضعت أمامها كوب والدتها الشينو. غير أنّها، هذه المرّة، لم تستطع إلّا أن تتوقّف عن إعداد الشاي: فعلى الرغم من أنّ عود الشازن بالغ الدقّة إلّا أنّه كان يرتطم باستمرار بجوانب الكوب الضيّق والرقيق.

ـ أجد صعوبة في سحق الشاي! قالت متنهّدة.

ـ أدرك جيداً أنّ الأمر ليس سهلاً نظراً لضيق الكوب، أجابها كيكوجي.

(*) حسب ما تقتضيه التقاليد، قبل أن يُقدّم إلى الضيف.

والحقيقة أنّ يدي الفتاة هما اللتان كانتا ترتعشــان حتّى أنّ الرعشـة كأنّها انتقلت إلى ساعديها.

وعندما أرادت أن تحرّك الشازن بضربات متتابعة لم تُفلح في إبقائه داخل كـوب الشينو الضئيل.

أسندت فوميكو رأسها إلى معصمها المثني بتشنٌّج وتنهّدت:

ـ إنها أمّي، إنّها لا تريد. . .

ـ ماذا؟

نهض كيكوجي بوثبة سريعة وانتصب على قدميه وأمسك الفتاة من كتفيها بيديه الاثنتين، كأنّه يهزّ جسد من أصابه مسٌّ ليوقظه من غيبوبته.

أمّا فوميكو فلم تُبد أيَّ مقاومة.

IV

لم يكن قادراً على النوم وانتظر بـزوغ النهار قبـل أن ينهض حين تسلّلت بـوارق الفجر الأولى عبر مصراعي النافذة. وعندئذٍ غادر حجرته وتوجّه نحو التشاشيتسو.

كانت أجزاء الكوب المحطّم مبعثرةً على بلاط التسوكوباي(*).

لمّ كيكوجي أربعة منهـا وضمّها في راحتيـه محاولاً جمـع أجزاء الكـوب في شكله السابق فيما عدا قطعة ناقصة عند حافته لا تتعدّى عرض إبهام اليد.

انحنى وراح يُفتّشُ بـينَ الحجارة يحـدوه أملٌ غـير أكيـد بـالعثـور عـلى الأجـزاء المفقودة، ولكنّه سرعان ما كفَّ عن سعيه الذي لا فائدة فيه.

وحين استقام في وقفته ورفع عينيه، لمح من خلال الأشجار، عنـد طرف السـماء لجهة المشرق، نجمة وحيدة تلمع.

مكثَ واقفاً يتأمّل نجمة الصباح حالمـاً كمن مضت عليه أعـوامٌ طويلة دون أن يراها. وفي كنف السماء الصباحية كان يرى الغيوم تتلبّد وكأنّها تتصـاعد من أنـوار الفجر.

وعلى طرف الغمامة بدت النجمةُ وكأنّها تتوهّج ببريق لم تعهده من قبل. وكـانت حوافّها تلمع وتشعّ كما لو أنّها غارقة في المياه.

كانت رؤية هذه النجمة قد أفعمت كيكوجي بإحساسٍ عميق بالطراوة فانتابتـه مشاعر الخجـل لأنّه أراد أن يجمـع أجزاء الكـوب المحطّم، فـرمى ما كـان منها في يديه.

(*) نوع من الحجر الأملس المُسطّح، يُشكّل نوعاً من العتبة التي تفضي إلى الرواق المسقوف.

فحين همّت فوميكو برمي كوب الشينو على الحجارة، مساء أمس، أكان في وسعه أن يفعل شيئاً؟

كانت الفتاة قد غادرت فجأةً التشاشيتسو كأنّها اختفت أو تلاشت فلم يلاحظ كوب الشينو في يدها.

لم يبدر منه إلا صرخة: «أوه!» حين رآها منحنيةً على حجر التسوكوباي وكأنّها أخذت بعنف رميتها. ودون أن يسعى للبحث عن كسور الخزف بين الحجارة التي حجبتها عتمةُ الليل، سارع إلى الإمساك بفوميكو من كتفيها لمنعها من السقوط.

- أكواب الشينو... يوجد الكثير ممّا هو أفضل منها... كانت تقول بهمس.

أكان ذلك حقاً لأنّها تخشى ما قد يتاح له من مقارنات بين أنواع الشينو؟

كانت هذه الكلمات لا تني تتردّد في مسامعه كلّما تقدّم الليل. لايني يردّدها وفي أعماق قلبه كان صداها يترجّع ويعتمل شجناً مُضنياً كأنين الحياء المثلوم الذي لا عزاء له.

لذلك كاد لا يطيق صبراً على انتظار الفجر ليهرع إلى الحديقة بحثاً عن أجزاء الكوب المحطّم.

جمعها، لكنّه سرعان ما رماها مجدّداً تحت أنظار النجمة اللامعة. والآن...

- أوه! قال، كأنّه تنهّد أفلت منه.

نظر مجدّداً إلى السماء ورأى أن النجمة اختفت. إذ ما كاد يُلقي نظرةً خاطفة على الكسور المتناثرة على الأرض حتّى حجبتها الغيوم.

مكث كيكوجي يتأمّل سماء المشرق بثباتٍ وإصرار: كان يشعر بالخيبة.

لم يكن يعرف، في حيرته، أين يبحث عن نجمتـ«ـه» خلف الحُجُب الغائمة وإن بدت خفيفة كغلالة. عند الشفق، كانت السماء المضرجة قد صفَت تماماً بعد أن عَلَتِ الفرجة التي تحدّها سطوح المدينة.

- ولكنْ، برغم كلّ شيءٍ، ليس بإمكاني أن أتركها هنا! قال كيكوجي همساً ثمّ

انكبّ على التقاط الأجزاء المتناثرة ودسّها في كم مبذله(*).

كان مجرّد التفكير في أنّها ستبقى هكذا في الحديقة يُشعره بغصّة في القلب. هذا بالإضافة إلى المجازفة التي كان يسعى لتجنّبها: فقد تعثر عليها شيكاكو في إحدى زياراتها البغيضة المفاجئة.

فما دامت فوميكو هي التي حطمت الكوب، وبما أنها فعلت ذلك تحدوها رغبةٌ يائسة في أن يُصبح الكوب حطاماً، فإنّ مجرّد السعي للاحتفاظ بهذه الأجزاء لا يكون إلاّ من قبيل الاعتراض على مشيئتها. لذلك فالأفضل أن يطمرها في الحديقة بقرب التسوكوباي.

هذا ما كان يراودُ كيكوجي. ولكنْ برغم ذلك، عاد إلى البيت حيث غلّف بعناية شظايا الخزف بورق سميك ثمّ وضعها، في الانتظار، في الخزانة. وحين فرغ من ذلك، عاد إلى فراشه.

متى كان من شأنه أن يقارن بين قطعته الشينو وقطع أخرى، وأين؟ ولماذا عليه أن يفعل؟ المؤكّد أنّه لم يكن قادراً على إدراكِ القصد من كلام فوميكو!

وذلك الصباح بالذات كان أقلّ قدرة أيضاً، بعد تلك الليلة التي لا تُنسى؛ وقد أصبحت فوميكو في عينيه كائناً لا يُقارن بأي كائن آخر، فوميكو التي لا تُضاهى، والتي أصبحت له كياناً مطلقاً، وعلامة حاسمة من علامات قدره.

لم يقدر في السابق، وحتّى اللحظة، أن ينسى حقيقة أن فوميكو هي إبنة السيّدة أوتا. أمّا في تلك اللحظات فقد كان يفكّر ويحيا وكأنّه لم يفكّر في هذه الحقيقة على الإطلاق. وكذلك الأمر تبدّد ذلك الحلم أيضاً، ذلك الحلم الشاذ الذي جعله يرى، في سياق تحوّل أثيم، جسد الأمّ النشوان في جسد الإبنة. كأنّه أصبح طليقاً لا تسكنه الأهوال والظلمة التي طالما كبّلت كيانه.

أهو مدين بنجاته لهذه الطهارة الجريحة؟

فوميكو نفسها لم تبد أي مقاومة حياله: ولم يكن عليه إلاّ أن ينتصر على حيائها الظاهر. وعلى الفور، لمجرّد إحرازه لما قد يبدو في الظاهر ذروة التهالك الجهنمي، نجا كيكوجي من دنسِ اللعنة كأنّه انتُشلَ من قعر الهاوية التي كان يتخبّط فيها

(*) كم الكيمونو الواسع الذي يُستخدم كجيب.

عبثاً، فاقداً قواه، فاقداً ذات نفسه.

كان مسحوراً، مُستسلماً لهلاك السمّ البطيء، ثمّ بدا له فجأة أنّه يُـدينُ بمعجزة شفائه لجرعة قاتلة من السمّ عينه.

ما أن دخل إلى مكتبه، سارع إلى الاتصال بفوميكو هاتفياً في الوكـالة التجـارية حيث تعمـل: وكالـة لبيع القـماش بالجملة في ضـاحية كـاندا، كـما أوضحت له. الآنسة أوتا لم تأت هذا الصباح.

لقـد أصرّ كيكوجي بعـد ليلة الأرق الطويلة عـلى الـذهـاب إلى المكتب، وربّمـا فضّلت فوميكـو أن تنعم بقسطٍ من النوم بعد أرق كابـدته حتى سـاعات الصبـاح الأولى. أو ربّما منعها حياؤها من مغادرة المنزل. . .

عاود الاتصال بعد الظُهر، قيل له إنّها لم تأت بعد، فسأل كيكوجي عن عنوانها الذي يجهله.

لا بدّ أن العنوان مدوّن على ظرف الرسالة التي استلمها يوم أمس ولكنّ فوميكو مزقتها قبـل أن يتاح لـه قراءتهـا ودسّت مزق الـرسالـة في جيبها. كـان حفظ اسم الوكالة التجارية التي تعمل فيها خلال حديثهما على العشاء، ولكنّه نسي أن يسألهـا عن عنوان منزلها. وكيف لا ينسى وقد تملكه الإحساس بـأنّها لا يمكن أن تكون إلّا حيث يكون هو؟

عند مغادرته المكتب، انطلق كيكوجي في بحثه عن المنزل الذي استأجرت غرفة فيه، وفي النهاية استطاع أن يهتدي إليه. فهو يقع خلف حديقة أوينو العامّة.

لم تكن فوميكو هناك.

استقبلتـه فتاة صغـيرة في الثانيـة أو الثالثـة عشرة في زيّها المـدرسي. ولا بـدّ أنّها كانت عائدة للتوّ من المدرسة، فاستمهلته قليلاً عند الباب ما أن سـألها ودلفت إلى الداخل.

- لقد خرجت الآنسة أوتا هذا الصباح، قالت له الفتاة حين عادت. قالت إنّها ذاهبة في رحلة برفقة صديقات لها.

- رحلة؟ قال كيكوجي مُتعجباً. ذهبت في رحلة؟ هذا الصبـاح؟ في أي ساعـة

غادرت؟ ألم تقل إلى أين؟

غابت الفتاة مجدّداً لتسأل، ولكنّها لم تعد هذه المرّة إليه بل صرخت من الداخل:

- لا أعرف بالضبط. . . أمي ليست هنا.

لا بدّ أنّ حضور كيكوجي قد أخجل الفتاة الصغيرة التي لاحظ حاجبيها الدقيقين المتباعدين.

عاد أدراجه، وحين وصل إلى الشارع استدار ونظر في اتجاه المنزل. كان يودّ أن يعرف أيّاً من النوافذ هي نافذة الغرفة التي تسكنها فوميكو. كان منزلاً من طبقتين وأمامه حديقة، فبدا له مجهّزاً بكلّ أسباب الراحة.

الموتُ قريب جداً منّا! هذا ما قالته فوميكو. وحين تردّد في رأسه كلامها هذا، أحسَّ كيكوجي كأنّ قدميه قد سمّرتا في مكانهما.

تناول منديله ومسح العرق المتصبّب من وجهه. كأنّ قطرة دم واحدة لم تعد تسري في عروقه، وراح يدعك جبينه وخديه. وحين رفع منديله أمام عينيه رأى أنّه ملطّخ ببقع سوداء. وإذ سرت ارتعاشة في جسمه أدرك أنّ العرق البارد يبلل ظهره.

- ما من سبب يجعلها تموت. . . قال في سرّه. ما من سبب.

لا، لم يكن هناك سبب لموتها، فوميكو التي أعادت إليه طعم الحياة. فوميكو التي أعادت إليه الحياة!

ولكنْ ألم يكن رضوخها التامّ ليلة البارحة، بلى، ألم يكن خضوعها الكامل الذي أبدته طوال الأمسية، إنما تُمليه عليها فكرة الموت؟

أو ربّما وجدت، كما فعلت أمها في السابق، أنها خاطئة، إلى أقصى ما في الخطيئة، برضوخها الذي أبدته ليلة البارحة؟

- وكوريموتو، هي التي تظلّ على قيد الحياة! صرخ كيكوجي وغيظهُ يُطلق الكلام كأنه سمٌّ يبثه في وجه عدو خفيّ.

كان يحثُّ خطاه نحو ظلال الحديقة المجاورة.

تمّت

الفهـرس

ياسوناري كاواباتا

أحد أبرز روائيي اليابان. ولد في مدينة أوزاكا عام ١٨٩٩. نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٨. في عام ١٩٧٢ انتحر وهو في الثالثة والسبعين من عمره. له: «راقصة إيزو»، «ضجيج الجبل»، «البحيرة»، «بلد الثلوج»، «الأستاذ أو مباراة لعبة الغو»، «الجميلات النائمات»، و«سرب طيور بيضاء» التي نقدّم ترجمتها العربية بين دفتيّ هذا الكتاب.

سرب طيور بيضاء

«عاودت الفتاة ذات الطيور البيضاء صنع الشاي ولكن، هذه المرّة، إكراماً للسيدة أوتا. وكان المدعوون جميعهم يراقبون كل حركة من حركاتها. لا، من المؤكد أن الآنسة إينامورا لا تعرف شيئاً عن قصة كوب الأورِيبة الأسود الكئيبة: كانت تؤدي كل حركة من حركاتها وفق الأصول التي تلقّنتها. وكان أداؤها مجرّداً من أي أسلوب شخصي. دقة جلستها وبساطتها. وكانت استقامة جذعها من أعلى النحر حتى طرف الركبتين، تضفي على حركتها مسحة من الأناقة لا شبهة فيها.

كانت.أوراق الشجر تشبك ظلالها على النافذة، من ورائها، ويعكس نورٌ شعشعٌ بريقَهُ الناعمَ على كتفيها، وينزلق على كُميْ الكيمونو فيضاعف ألقَ ألوانه. حتى شعرها كان يبدو لامعاً. وفي غمرة هذه الشفافية، التي تفيض إضاءتها عن مقصورة شاي، كانت زهرة صباها تتفتّح. كانت الفتاة تستخدم فوطة من الحرير القرمزي فلا يثير هذا اللّون بين يديها أيَّ انطباع بالتنافر، بل على العكس، كان يشيع مناخاً من الطراوة المفعمة، كأنّ زهرة تتفتّح في كل حركةٍ من حركاتها، ومن حولها كأنها رفرفة ألفٍ من الطيور البيضاء».

المركز الثقافي العربي

ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان

ص . ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب